# (١)الفلسفة المثالية روادها وتطبيقاتها التربوية

تعد الفلسفة المثالية من أقدم الفلسفات في الثقافة الغربية والتي يمتد تأثيرها حتى عصرنا الحاضر، حيث يلاحظ أنها قد أثرت في كثيرٍ من النظم التربوية والتعليمية في العالم. وترجع نشأة الفلسفة المثالية إلى كتابات المفكر اليوناني أفلاطون الذي يعتبر أباً للمثالية (429-347ق.م) ثم “ما لبثت أن أصبحت خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر من أكثر الفلسفات انتشاراً وذيوعاً وربما يعود ذلك لكونها من أقرب الفلسفات للديانات السماوية.” (محمد، 2003م، ص: 70)

ولقد مثل الفكر المثالي واحداً من أهم الأصول العقدية الفلسفية للتربية واستقي منه عدد من التطبيقات التربوية التي لايزال العمل ببعضها قائما حتى عصرنا هذا.

والمثالية **Idealism** مأخوذة من المثال وتعني في اللغة الإغريقية الصورة أو الفكرة ويعرفها لالاند (lalande) في معجمه الفلسفي بأنها **” الاتجاه الفلسفي الذي يرجع كل وجود إلى الفكر بالمعنى الأعم لهذه الكلمة. وبمعنى آخر هي المذهب الذي يقول أن الأشياء الواقعية ليست شيئاً آخر غير أفكارنا نحن، وأنه ليس هناك حقيقة إلا ذواتنا المفكرة أما وجود الأشياء فقائم في أن تكون مدركة عن طريق هذه الذوات ولا حقيقة لها وراء ذلك”** ( شبل وآخرون 2001م،ص223). ويتم ذلك عن طريق الحدس والإلهام وإن الحقائق التي تدرك بالعقول أكثر من الحقائق التي تدرك بالحواس، إنها رؤية شاملة  للكون باستخدام العقل .(جعنيني 2004م,ص: 107)

وهناك من يرى أن **“الفلسفة المثالية تعني بوجه عام الاتجاه الذي يرجع الوجود إلى الفكر، أي أن الواقع الطبيعي الذي نعيشه ويحيط بنا هو روحي في أساسه. فالواقع الطبيعي ليس له وجود مطلق وإنما هو ظواهر لواقع روحي، وبالتالي فالمظهر الخارجي للإنسان ليس حقيقته إنما الروح هو حقيقته وجوهره أي أن الروح أو العقل هو العالم الحقيقي أما الأشياء في العالم الطبيعي إذا كانت أشباح أو ظلال لعالم المثل فإن هذه الأشياء لا وجود لها إلا بمقدار إدراك العقل لها واقترابها من عالم المثل”** (محمد ,2003م, ص: 128)

وهي مذهب فلسفي يؤمن معتنقوه بوجود أفكار عامة ثابتة ونهائية وهي جوهر الكون وحقيقته وقد أوجد هذه الأفكار عقل عام أو روح عامة وهي كل ما هو حقيقي. كما يؤمنون بأن عالم المادة عالم الخبرات اليومية عالم غير حقيقي لأنه يتميز بالتغير وعدم الاستقرار، ولكن هذه المادة لا يدركها الإنسان بحواسه، وصيغت على مثال وجد في الفكر، والعقل وحده هو الذي يحكم على مدى مطابقة المادة لتلك المثل. (ناصر ,2001م  ,ص:243)

# ****النشأة التاريخية للفلسفة المثالية:****

الفلسفة المثالية من أقدم الفلسفات في الثقافة الغربية، وترجع جذورها التاريخية إلى الفيلسوف الإغريقي أفلاطون (429-347 ق.م) الذي اعتبره مؤرخو الفلسفة ونقادها أباً لها على الرغم من وجود فكر فلسفي وفلاسفة قبله. لقد آمن بالثنائية، أي بوجود عالمين: العالم الحقيقي وهو عالم الأفكار العامة الحقيقية الثابتة (عالم المُثل)، والعالم الآخر وهو عالمنا الذي نعيش فيه وهو ظل للعالم الحقيقي ( الرشدان وآخرون 1997م ص:59,ص:60)

والفلسفة المثالية نشأت ملائمة لعصرها، فالنظام الاجتماعي – الاقتصادي الذي كان قائماً في مدينة أثينا في ذلك الوقت كان قائماً على التقسيم الطبقي للمجتمع إلى ثلاث طبقات: طبقة الأحرار، المحاربين، والعبيد. وكانت التربية الحرة مقصورة على الأحرار التي لا تنظر نظرة احترام إلى العمل اليدوي.

وكان لهذه الفلسفة تأثير كبير على حياة الشعوب، وساعدت الديانتان اليهودية والمسيحية على انتشار الأفكار المثالية على نطاق واسع. ولا يزال أثرها قوياً في أعمال المفكرين والأدباء ورجال الإصلاح والسياسيين ورجال التربية.(جعنيني 2004م,ص: 108)

وإضافة إلى المذهب التقليدي للمثالية الموضوعية والذي كان الفيلسوف اليوناني أفلاطون أبرز روادها فإن الفلسفة المثالية لها صور متعددة من أهمها:

## 1****– المثالية الذاتية**** subjective idealism:

وتفسر العالم المادي تفسيراً عقلياً روحياً، إذ ترى أن الوجود هو الإدراك، فوجود الشيء يعني أننا ندركه. والمادة لا تدرك في ذاتها، وتنكر وجود المحسوسات، فهي لا تحول الأشياء إلى معان بل إنها تحول المعاني إلى أشياء ومن ممثليها “باركلي”.

## ****2- المثالية**** ****النقدية**** critical idealism:

ومن روادها “كانط” الذي دحض المثالية الذاتية، إذ بين في كتاباته التمييز الدقيق بين الظواهر العقلية على كل تجربة والظواهر المكتسبة بالتجربة، ويرى أن المعرفة لا تستقي من المحسوسات وحدها ولا من العقل وحده، ولكن الحس ينقل للعقل صور المحسوسات فيضيف إليها علاقات زمنية أو مكانية، ومن هنا أضاف “كانط” العقل إلى التجربة كمصدر من مصادر العلم.

ثم هناك المثالية المطلقة التي قال بها “هيجل” وأخذها عنه “برادلي” الإنجليزي، ثم المثالية الجديدة وهي التي دعا إليها في إيطاليا “كورتشه”. ثم المثالية الشخصية عند “سور لي”.(جعنيني 2004م,ص: 108-109)

# ****رواد الفلسفة المثالية :****

هناك عدد من الفلاسفة ينظر إليهم كرواد ورموز للفلسفة المثالية في صورها المتعددة ولازالت أقوالهم الفلسفية ذات أثر عميق في التاريخ الفلسفي الإنساني ليس ذلك في المجال التربوي فقط ولكن في شتى المجالات ومن أبرزهم على الإطلاق يأتي:

## ****أفلاطون****  429-347 ق.م:

ولد في مدينة أثينا أو في أجينا في أسرة أرسطقراطية، ونال حظاً عالياً من الثقافة من علم وأدب وشعر وفلسفة، إلا أن ميله كان لعلم الرياضيات، وقضى معظم حياته يؤلف ويفكر في العلم والسياسة والتربية ويمهد لها بالفلسفة. وقد تتلمذ أفلاطون على يد العديد من الفلاسفة ومنهم سقراط الذي كان له أثر كبير على فكره وحياته.

أنشأ أكاديميته في أثينا عام (387) ق.م والتي كانت عبارة عن جامعة حفظت تراث اليونان الثقافي من هوميروس إلى سقراط، وبقي في الجامعة يعلم عن طريق الحوار والجدل، ومارس الكتابة قرابة أربعين عاماً ونشر أفكاره التربوية في كتابيه “الجمهورية” و”القوانين” التي كانت مشتقة من فلسفته وبالأخص أفكاره في طبيعة الدول والمواطنة فيها، فوضع بذلك نظاماً تربوياً شاملاً يكشف عن مواهب الفرد من أجل تحقيق العدالة والفضيلة في المجتمع، ويرى أن المدينة الفاضلة التي تصورها تمتاز بصفات الحكمة والعدالة والعفة والشجاعة. (شفشق 1982م ص:332)

وسعى من وراء نظريته في الأفكار “نظرية المثل” إلى إيجاد المسكن الحقيقي للروح، فالحقيقة عنده هي الأفكار وهي مصدر تشابه الأشياء، إنها المثل الأبدية الثابتة القائمة في أساس الظواهر الطبيعية.

واعتقد أن الأشياء ماهي إلا نسخ ناقصة لمثل كاملة لا يمكن معرفتها إلا عن طريق العقل فالعقل أزلي وكوني لأنه يعمل في أشياء أزلية وكونية وهو الذي يوصلنا إلى المعرفة الحقيقية.

لقد كان أول فيلسوف تناول المسائل الرئيسية في الفلسفة من كون ومعرفة وأفكار ووضعها في نظام متماسك، ويعتبره البعض ملك الفلاسفة، وكان يأمل أن تلعب فلسفته دوراً قوياً في السياسة. (جعنيني 2004م,ص:111)

وركز على العقل وحده دون الحواس، ويعتبر أن التخصص وتقسيم العمل أساس الحياة الاجتماعية، وخرج بنظريته في كتاب “الجمهورية” والتي ترتكز على التخصص في التربية وعلى بناء مدينة فاضلة.

كما آمن أفلاطون بقدرة التربية على علاج الفساد والتغيير للأفضل وتبدأ منذ الطفولة، لكن يلاحظ أن آراؤه واتجاهاته طوبائية بعيدة عن الواقعية الاجتماعية وغير متناسقة في إطار فكري ينظمها ويحويها، وقد ارتبط المذهب المثالي التقليدي باسمه وسميت مثاليته بالمثالية الإلهية.(التل وآخرون 1993م:ص179)

وبعد عصر النهضة والإصلاح الديني الذي حدث في الغرب ومنذ القرن السادس عشر، أصبحت المثالية من أكثر الفلسفات ذيوعاً وانتشاراً، ويرجع الفضل في ذلك إلى مساهمة عدد من الفلاسفة فيها مثل رينيه ديكارت الفرنسي (1569-1650م)

## ****رينيه ديكارت**** 1569-1650م:

يعد هذا الفيلسوف من الفلاسفة المثاليين على الرغم من أن جزءاً كبيراً من فلسفته تقع في نطاق الفلسفة الواقعية، فمنذ ريعان شبابه كان يحاول التوصل إلى معارف بشأن الإنسان والكون، ولكن تعمقه في دراسة الفلسفة أوصله إلى قناعة بجهله الكامل عن الوصول إلى معارف أكيدة.

نشر معظم كتابته في كتاب “مبادئ الفلسفة” عام (1637م)، وارتبط اسمه بمذهب الشك المنهجي الذي من خلاله يتوصل الباحث والدارس إلى اليقين، فأعطى قيمة للشك باعتباره نوعاً من التفكير، وأن التفكير ما هو إلا وجود، ووصل إلى المبدأ الآتي وهو “أنا أفكر إذاً أنا موجود” أي أنه إذا انعدم التفكير انعدم الوجود.

واعتقد أن الحقيقة قائمة في العقل ولا وجود لها خارجه، فمعرفة الأشياء الخارجية تكون بالذهن لا بالحواس، ولكنه يؤكد أن الفكر ليس سبباً في خلق الوجود على نحو ما يراه بعض المثاليين، إذ إنه فصل بين العقل والمادة وبين الفكر والوجود كما فعل أفلاطون. (جعنيني 2004م,ص:113)

## ****جورج باركلي****1685-1753م:

هو أسقف ايرلندي تبدأ فلسفته بالروح والعقل، وناضل باركلي ضد المادية لأنها تتعرض للإيمان. ويعتبر من ممثلي المثالية المتطرفة لأنه أنكر في كتابه “مبادئ المعرفة الإنسانية” وجود المادة متذرعاً باستحالة إدراك الأشياء المادية. فمثاليته مثالية ذاتية ترى وجود الشيء في إدراكه وأن الأشياء ليس لها وجود مادي مستقل عن الذوات التي تدركه، وهو بهذا قريب من ديكارت في مثاليته المنهجية عندما اعتبر وجود الله هو الأساس في وجود العالم. (جعنيني 2004م,:ص114)

ويعد باركلي من رواد (المثالية السيكولوجية ) أو (المثالية المادية ) أو ما يسمى (المثالية الخارجية) والتي توقف وجود العالم الخارجي على الذات العارفة.

## ****إيمانويل كانط**** 1724-1804م:

من مشاهير الفلاسفة المحدثين، ويرى بعض المؤرخين والنقاد أنه عملاق الفلسفة الحديثة ومؤسسة الفلسفة النقدية وزعيم للمدارس المثالية الألمانية. لقد عمل أستاذاً للفلسفة في جامعة لكسمبورغ، وكان جوهر فلسفته الإيمان بوجود مفاهيم قبل التجربة أو خارجة عن نطاقها وهذا ما يشبه عالم الأفكار عند أفلاطون. ويرى أن الحواس والعقل يلعبان دوراً كبيراً في المعرفة مؤكداً مغالاة الفلاسفة العقلانيين في دور العقل ومبالغة التجريبيين في الوقوف فقط عند تجاربهم الحسية.

أرجع كانط كل شيء للإيمان وأن القدرة على المعرفة هي من عند الله، وآمن بخلود الروح وبالضمير الحي واعتبرها مسلّمات لفلسفته واختلف مع الفلاسفة المثاليين في جعل العقل باطناً في المادة، فالعالم الحسي لا يستطيع الوقوف على أرجله وحده فهو بحاجة مستمرة إلى أضواء المعرفة العقلية. (جعنيني 2004م:ص116,115)

وتتسم الفلسفة المثالية لديه بأن لها صفتان رئيستان:

* الأولى أنها مثالية نقدية لأنها وجهت اهتمامها إلى وضع حدود للعقل وطالبت بألا يتعداها إلا في حدود التجربة الممكنة .
* الثانية أنها شارطة لأنها تضع الشروط الأولية التي تجعل التجربة ممكنة وهي شروط عقلية يضعها العقل دون الاعتماد على التجربة مثل مفهوم المكان والزمان والسببية وهي أطر عقلية تنظم المعرفة التي تأتي عن طريق حواس الإنسان. (جعنيني 2004م:ص115)

## ****)هيغل (1770-1831)):****

ولد في ألمانيا في مدينة شتوتغارت ومارس تدريس الفلسفة في عدة جامعات، وقد اعتمد على كانط كثيراً وكان لفلسفته تأثير كبير على الكثير من الفلاسفة الماديين.

دافع في كتاباته عن وجود حقيقة خارجة عن تجارب الإنسان، وأن كل ما يفعله البشر ما هو إلا نتاج لنشاط العقل المطلق الذي يعتمد عليه عالم البشر الحسي، وهو لا يعتقد بوجود حقيقة خارج أو فوق العقل الإنساني، فكل معرفة هي معرفة إنسانية.

آمن هيجل بالتطور الجدلي للأفكار، فكل فكرة تبنى على فكره أخرى أقدم منها، ويعتبر الفلسفة هي العلم الأكثر سمواً للعقل فهي مرآة روح العالم. وجاءت كتاباته كرد فعل ضد المثالية الذاتية والتي تؤمن بوجود عقل مطلق في الطبيعة. (جعنيني 2004م:ص 116-117**)**

ومن ممثلي الفلسفة المثالية أيضاً،كروتشه، جنتلي، كواريدج، وكارلايل والذين لا يتسع المجال لذكرهم جميعاً.

# ****أسس ومبادئ الفلسفة المثالية :****

لكل فلسفة من الفلسفات عدد من المبادئ والركائز التي بنيت عليها وفي ضوئها برزت عدد من التطبيقات التربوية لها والتي جاءت مؤكدة للنظرة الفلسفية لرواد المثالية في قضايا الوجود والمعرفة والقيم والطبيعة البشرية.

وقد ذكر مقداد يالجن (2008م ,ص**)**61,53أن المثالية لها أربعة أسس تقوم عليها فيما يتعلق بنظرتها إلى الوجود والمعرفة والقيم والطبيعة البشرية ولها تصور خاص لكل قضية من هذه القضايا الأربعة يتلخص في النقاط التالية:

## ****1- أساس الوجود أو التصور عن الكون:****

المثالية تعترف بوجود عالم روحاني إلى جانب العالم المادي وينسحب هذا على وجود الإنسان وأنه مكون من المادة والروح وعنايتهم بالعالم الروحاني أكثر من العالم المادي لأن العالم الروحاني يعني المثالي هو الأساس والعالم المادي ظل له، وتستهدف الوصول بالإنسان إلى هذا العالم والسمو إليه بتربية خاصة بالتربية الروحية وتأخذ هذه التربية أكبر اهتمام من هذه النظرية من اهتمامها بالجوانب الأخرى من التربية مثل التربية الصحية والجمالية والفنية وغيرها.

ويرى مرسي أن المثالية تنظر إلى العالم على أنه عالم العقل والروح وليس عالم الواقع، وأن هذا العالم قد رسمته عقولنا وأرواحنا. وهكذا تختزل المثالية الكون بكل ما فيه إلى عنصر واحد هو “الروح أو العقل” التي يجب أن تفهم على أنها التجرد الكامل من المادية. (مرسي، م1993،ص: 163)

وتنظر الفلسفة المثالية أيضاً إلى طبيعة العالم نظرة ازدواجية حيث قسم أفلاطون العالم إلى قسمين:

* **عالم علوي سماوي (عالم الحقيقة المطلقة والمثل المطلقة):** يحوي المثل العليا من الخير والحق والجمال، ويوجد فيه العدل المطلق، والحقيقة المطلقة، والقيم المطلقة، وهذا العالم أزلي خالد غير قابل للتغير، وسيظل هكذا على الدوام ولا يمكن إدراكه إلا عن طريق العقل وعالم المثل أرقى من عالم الواقع.
* **عالم سفلي (عالم المادة أو عالم المحسوسات):** عالم الواقع المتغير، ندركه بحواسنا، وهو عالم مضطرب متحول ونهايته الفناء، عالم غير حقيقي من صنع العقل وتصوره. (محمد، 2002،ص: 71)

## ****2- أساس الطبيعة البشرية:****

ترى المثالية أن الإنسان وإن كان فيه جانب مادي فالروح هي الأساس. فالروح لا تفنى وأما الجسم سوف يفنى. (يالجن، 2008م، ص**:**55-54)

“فالمثالية تنظر إلى الإنسان نظرة ثنائية، أي أنه نفس وجسم، وأن النفس جاءت من عالم المثل، وحلت في الجسم لتقضي حكماً بالسجن صدر عليها، وبعد الموت ستعود مرة أخرى إلى عالم المثل”. (فرحان، 1989م، ص:47)

ووفقاً لهذه الفلسفة “فالإنسان مؤلف من جوهرين أحدهما ينتسب إلى عالم المثل وهو النفس، والآخر ينتسب إلى عالم الحس وهو البدن، وبما أن النفس من عالم  المثل فهي إلهية أزلية أبدية، وهي أسبق في وجودها في البدن وتبقى بعد الموت.(الجعفري، 2010م,، ص:25-26)

“ونجد أن أفلاطون قد فصل في النفس الإنسانية بشكل أكبر، فهو يرى أن النفس تتكون من ثلاثة أنواع من القوى أو القدرات أو الملكات هي: قوة العقل وقوة الغضب، وقوة الشهوة. وباختلاف الأفراد في القوى يختلفون في المهن التي يصلحون لها. فحيث يكون للعقل الغلبة، فصاحبه يصلح للمهن التي تتطلب الدرس والتحصيل والتفكير. وحيث تتغلب الإرادة فالمهن التي تصلح لها أعمال تتطلب القوة كالشرطة والحرب. أما حيث تسود الشهوات، فخير ما يصلح لها المهن التي تتطلب التجارة والإنتاج حيث الربح وتتحقق الذات الشخصية”. (النوري، 1979م، ص:150)

ووظيفة التربية حسب هذه الفلسفة هي التنمية الروحية، وتهتم هذه الفلسفة بالتربية العقلية والأخلاقية والإيمانية، أي الإيمان بالله وبالعالم المثالي، والتربية الأخلاقية تعين الإنسان على تزكية النفس والتخلص من النيات والغايات السيئة. (يالجن، 2008م ، ص**☺**55-54)

## ****3- الأساس المعرفي وطبيعة المعرفة في الفلسفة المثالية :****

المثالية حسب فلسفتها المبدئية في تقسيم العالم إلى العالم العلوي المثالي والعالم السفلي المادي الحسي ترى أن مصدر المعرفة أساساً السماء أو العالم المثالي عالم الأرواح، وترى أن الإنسان يعني روح الإنسان قبل أن تحل وتنزل في جسم الإنسان كانت تعرف المعارف ومزودة بالمعارف ولكن لما نزلت إلى الجسم نسيت المعلومات وتذكر المعلومات بالتدريج حسب النمو ومساعدة أدوات الحواس أو أجهزة المعرفة في الجسم.

ويرى اليماني أن المعرفة لدى المثاليين نوعان:

* معرفة حقيقية أزلية الأفكار أداتها العقل، فالحقيقة النهائية والمعرفة المطلقة موجودة في العالم العلوي، وهي عبارة عن الأفكار العامة الثابتة والشاملة والمثل النقية الأزلية وهي خالدة لا تتغير ووظيفة العقل هي البحث عن المعرفة الحقيقية المطلقة. (اليماني، 2004م:ص 63).
* معرفة متغيرة حسية أداتها الحواس: فالحواس ترتبط بالعالم المادي الحسي وهو عالم متغير متقلب زائف، والحواس غير قادرة على معرفة الحقيقة وإدراكها، كونها غير صادقة في إدراكها ولا تدرك سوى الأمور المتغيرة ومظاهر الأشكال، بينما المعارف الحقيقة الثابتة الموجودة في عالم المثل لا يدركها إلا العقل وهو يستمد ثباته وخلوده منه. والعقل هو الذي يدرك المعارف الحسية المتغيرة ويحولها إلى صور ومعاني ويسوغها في أفكار مدركة. (العمايرة، 1999م، ص:216)

ويمكن تلخيص آراء المثالية حول المعرفة في:

1- المعرفة مستقلة عن الخبرات الحسية ولا تستمد منها، ويؤكد أفلاطون على أن المعرفة المكتسبة عن طريق الحواس هي معرفة غير أكيدة.

2- المعرفة الحقيقية هي نتاج العقل وحده لأن العقل بحكم طبيعته يحول فوضى المادة إلى تأمل الترتيب والوضوح الذي تتسم به النماذج الأصلية النقية. فالحقيقة تكمن في أفكار العقل وليس في العالم الفيزيائي.

3- بعض المثاليين ومنهم أفلاطون يعتقدون أن المعرفة هي عملية استدعاء لها من عالم الروح، والأفكار لها وجود مستقل في عالمها الذي تنتمي إليه “عالم المثل”. أما المثاليون في العصر الحديث ومنهم باركلي فيرون أن الإنسان قادر على معرفة ما يدركه فقط، وهذا يعني أن معرفته تتمثل في حالته العقلية فقط، فالوجود يتوقف على العقل.

4-المعرفة لدى المثاليين بديهية وفطرية، فالإنسان مولود وفي عقله مقولات أساسية أو أفكار موروثه لا تحتاج إلى تجربة أو حواس للتأكد من صحتها. (بدران وآخرون ,2001م,ص:131)

5-المعرفة ثابتة لا تتغير على الرغم من تغير الظروف الاجتماعية والثقافية، والمعرفة أيضاً يقينية لا تقبل الشك لأن مصدرها العقل ويرون أن المعرفة عامة بين جميع البشر. (بدران وآخرون، 2001م، ص:131-132 بتصرف)

6- يرى الفيلسوف هيجل أن المعرفة تكون صحيحة إلى الحد الذي تشكل فيه نظاماً، وكلما كان هذا النظام أكثر شمولاً كانت الأفكار الذي يتضمنها أكثر اتساقاً. فالمعرفة ليست مجزأة بل موحدة طالما أن الحقيقة التي تعكسها المعرفة هي ذاتها كل واحد، وتسمى بـ “نظرية الترابط المنطقي للحقيقة”. (مرسي، 1993م,ص: 169)

وحجتهم في عدم الاعتماد على الحواس في المعارف أن الحواس تخطئ ولا تدرك الحقائق إدراكاً تاماً. (يالجن 2008م، ص:58)

## ****4- الأساس القيمي في الفلسفة المثالية :****

ذكر يالجن ( 2008م، ص:58) أن الفلسفة المثالية تهتم بالقيم وقد بين أحد روادها الأوائل وهو أفلاطون مثلثة القيم وهي قيم الحق والخير والجمال. وقد اشتهرت هذه القيم منذ أفلاطون، واهتمام المثالية بالقيم من متطلبات تلك الفلسفة وقد انعكست هذه القيم على نظريتها التربوية على نطاق واسع، لأن هذه القيم هي وسيلة للرقي إلى عالم المثل. فلا بد من تربية الأجيال عليها حتى يكون الكمال الإنساني.

فيرى أفلاطون: **“أن العالم المادي الذي نعيش فيه لا يستحق الاهتمام لأنه أشباح فانية وإنما الذي يستحق الاهتمام هو عالم القيم الروحية والمثل العليا لأنه حقائق خالدة وهي تتمثل في الخير والجمال والحق، وأن الخير هو الحق وأنهما يتضمنان الدين والخلق”.**

ويرى جعنيني (2004م:ص 119-120) أن هناك عدة **مبادئ تؤمن بها الفلسفة المثالية** قديماً وحديثاً ولكن بدرجات متفاوتة، لعل من أهمها:

1- النظر إلى العالم نظرة ازدواجية، فهناك عالم الأفكار (المثل) وهو العالم الحقيقي، والعالم الآخر وهو العالم الأرضي وهو الظل للعالم الحقيقي، وأن الحقيقة النهائية موجودة في عالم الأفكار وهي ليست من صنع الفرد أو المجتمع لأنها مطلقة وشاملة ويمكن للعقل معرفتها عن طريق الإلهام أو الحدس، وليس عن طريق الطرائق العلمية، أو الوصول إليها بواسطة العقل المطلق، وأن هذه الحقيقة ذات طبيعة عقلية أو ذهنية أو روحية وهي المعرفة الحقيقية.

2- تنظر إلى الإنسان نظرة ازدواجية فهو مكون من عقل أو روح وجسم، وترتكز على الروح أو العقل وتهمل الجسم.

3- تنظر إلى الكون المادي من خلال الذات العارفة وتعلق وجوده على وجود العقل الذي يدركه، وأن الأشياء المادية هي مصدر الفساد وأصل المعرفة الظنية.

4- تؤمن بأن الوجود لاحق على الماهية، بمعنى أن جوهر الإنسان (ماهيته) الذي يعبر عن خصائصه الذاتية التي تميزه عن غيره من الكائنات تسبق وجوده الفعلي.

5- تكمن الجذور العرفانية للمثالية في المبالغة في جانب واحد من جوانب عملية المعرفة المعقدة، وتضفي عليه صفة الإطلاق وتفصله عن الواقع والعالم المادي.

6- تفسر نشوء الأفكار من تلقاء نفسها مستقلة عن الواقع، فمفهوم الأشياء يوجد مستقلاً عنها.

7- تعتبر أن العقل البشري جزء من العقلي الكلي الشامل المتغلغل في الكون، والمعرفة الحقيقية هي من نتاج هذا العقل والحقيقة كامنة في أفكار العقل فالمعرفة مستقلة عن الخبرة الحسية.

8- القيم ثابتة لا تتغير، ويتوصل إليها العلماء والعظماء عن طريق الإيحاء ولا يجوز الشك فيها، وصالحة لكل مكان وزمان. وأهم القيم في نظرها هي القيم المطلقة وهي: الحق المطلق والخير المطلق والجمال المطلق، وهي موجودة قبل وجود الإنسان وجزء من تركيب الكون، لذا يجب أن تقوم سياسة المدرسة على مبادئ راسخة ثابتة.

9- تبحث الفلسفة المثالية في أمور الحياة والكون، فتكشف ثغرات وفجوات تحاول سدها بمنهج العلم فتفشل، ومن ثم تلجأ للعقل وحده تسأله عن الحل فيدلها على أفكار خارج الطبيعة.

# ****التطبيقات التربوية للفلسفة المثالية:****

أنتجت الفلسفة المثالية عدداً من التطبيقات التربوية والتي تأتي انعكاسا للأسس التي قامت عليها هذه الفلسفة ويمكن تلخيصها في النقاط التالية :

## ****1- مفهوم التربية وأهدافها:****

يتلخص مفهوم التربية عند المثاليين في أنه مجهود بشري للوصول إلى كمال العقل والتغلب على الشر، فالتربية هي العملية التي تساعد المتعلم للتعبير عن طبيعته الخاصة، أي إعداده للحياة من خلال تزويده بالمعرفة والبحث عن الحقيقة كي يصبح إنساناً خيراً. (جعنيني 2004م,ص122-125)

و يرى أفلاطون أن التربية **” عملية تدريب أخلاقي أو هي المجهود الاختياري الذي يبذله الجيل القديم لنقل العادات الطيبة للحياة ونقل حكمة الكبار التي وصلوا إليها بتجاربهم إلى الجيل الصغير”.**

وتؤكد هذه الفلسفة على تنمية الجوانب العقلية والروحية في الإنسان، فأي تربية لا تهتم بالعقل أو الروح فهي ليست تربية واقعية لأن مهمتها صقل روح الإنسان لأنها أهم جزء في كيانه.

وتهتم بتنمية الجانب الأخلاقي عند المتعلم في انسجام مع الكل الروحي الذي ينتمي إليه. لقد حددت المثالية أهداف التربية في البحث عن الحقيقة المطلقة اللامادية، والاهتمام بتحقيق الذات. وجعلت الهدف العام للتربية “هو إعداد الطالب عقلياً وخلقياً بغية تحقيق جميع القيم والمثل التي تريدها المثالية وبذلك تنقسم الأهداف إلى:

* هدف عقلي وهو المعرفة المطلقة.
* هدف خلقي وهو القيم والمثل المطلقة. (اليماني، 2004م:ص66)

## ****2- المثالية والمنهاج:****

تعتقد المثالية أن هدف المناهج التربوية لا يخرج عن كونه محاولة للوصول إلى المطلق باعتباره الجوهر، والمطلق لا يمكن الوصول إليه من أول محاولة؛ لذلك تؤكد المثالية على التكرار لأنه الوسيلة للوصول إليه، ويرون أن المناهج التربوية مهما بلغت من الكمال والدقة عاجزة عن الوصول إلى الهدف النهائي. وبناء على هذا التصور فإن المنهاج الذي تقترحه ثابت غير قابل للتطور انطلاقاً من فكرة ترك القديم على قدمه، وأهم ما يدرس لديهم: دراسة الفنون الحرة والعقلية والكتب العظيمة التي أنتجها العظماء والمفكرون والدراسات الكلاسيكية والاهتمام بالفلسفة والتاريخ والأدب والدين والفنون الجميلة.

ومنهاج المثالية منهاج مقفل يهتم بالمادة الدراسية أكثر من اهتمامه بالمتعلم، ولا يؤمن بالنشاطات اللاصفية الخارجة عن المقرر الدراسي، إلا في حدود ضيقة اعتقاداً بعدم مساهمتها في تدريب عقول المتعلمين وملئها بالحقائق، كما لا تؤمن بالمشاركة الجماعية في رسم السياسة التربوية ووضع المناهج، لأنها لا تشجع الإرشاد والتوجيه، وترى حلاً واحداً لكل مشكلة، كما أنها لا تشجع مجالس الآباء والمعلمين.

## ****3- المثالية وطرق التدريس:****

اعتمدت المثالية على طرق التدريس التي تهدف إلى حشو عقول التلاميذ حشواً ميكانيكياً بالحقائق والمعلومات التي توصل إليها الأجداد، فالمعلم عليه تلقين المعلومات وما على المتعلم إلا أن يحفظها وأن يخزنها في عقله كما ترى أن على المعلم استعمال العقاب البدني من أجل المحافظة على الهدوء في غرفة الدراسة كما أنها لا تهتم بمراعاة[الفروق الفردية](https://www.new-educ.com/%d8%a7%d9%84%d8%aa%d8%b9%d8%a7%d9%85%d9%84-%d9%85%d8%b9-%d8%a7%d9%84%d9%81%d8%b1%d9%88%d9%82-%d8%a7%d9%84%d9%81%d8%b1%d8%af%d9%8a%d8%a9-%d9%84%d9%84%d8%b7%d9%84%d8%a7%d8%a8) بين التلاميذ.

وتركز المثالية على طرق المحاضرة والإلقاء، وفي نظرها يعتبر التلميذ مثالياً إذا جلس صامتاً ساكناً ليتمكن من استيعاب المعارف التي تلقى عليه من أجل خزنها وحفظها، لذلك ركزت المثالية على العقوبات البدنية لإخضاع الجسم خضوعاً تاماً للعقل.

كما أنها تركز على التعليم السردي الذي يعتمد على طنين الكلمات، وعموماً فإنها في مجال التربية والتعليم قد ركزت على تدريب الجانب العقلي، وأهملت تدريب الجسم والاهتمام به مقارنة بالاهتمام بالعقل، وأهملت تأثير البيئة على الإنسان، وركزت على تعليم الصفوة؛ لما لهم من إمكانات نظرية للتعلم والاستمرار فيه.

## ****4-المعلم في الفلسفة المثالية :****

يعتبر المعلم في هذه الفلسفة أهم عناصر العملية التعليمية، ويمثل القدوة للتلاميذ سواء في الجانب العلمي أو الجانب الأخلاقي، وقد أشار إلى هذا مرسي (1993م، ص: 177) بقوله **“وبالنسبة للمعلم فإن لدى المثاليين توقعات عالية وكبيرة منه إذ يجب أن يكون المعلم ممتازا ليكون قدوة حسنة للتلميذ من الناحية العقلية والخلقية على السواء، وليس هناك في المدرسة عنصر آخر أهم من المعلم”.**

“ودور المعلم الأساسي يتمثل في نقل المعرفة التي يحتويها الكتاب للتلاميذ، حيث يُعد الكتاب المصدر الرئيس للتعلم في هذه الفلسفة؛ لأنه يتضمن نتاج عقول الأجداد أو تجارب الجنس البشري، “فالمدرَّس- في هذه الفلسفة- يتلخص دوره في ملء عقول التلاميذ بالحقائق والمعلومات الثابتة، حيث يقوم بتهيئة الجو المناسب ليعلمهم، ويجهز لهم البيئة المثلى للعيش والحياة، ثم يأخذ بيدهم، ويرشدهم بنظرياته ودروسه، إلى أقصى درجات الكمال الذاتي فيحقق بذلك هدف التربية”. (أبو العينين 1408ه، ص: 284).

ويذكر ناصر (2001م، ص:245-246) أن المعلم في هذه الفلسفة يجب أن يكون:

* متصفا بالأخلاق الحميدة الصالحة.
* ذو تحصيل علمي – دراية علمية كافية – لأنه الشارح لقوانين القوى العظمى.
* الناصح الحكيم، ومكتشف المجهول.
* صاحب شخصية جذابة وقائدا أكاديميا.
* لديه القدرة على توصيل المعرفة أو المعارف اللازمة.
* قدوة للمثل الأعلى، لكي تؤثر شخصيته في تلاميذه.
* في مكان الأب وله نفس القوة والمسؤولية.
* مهمته التربوية توليد الأفكار والمعاني من عقل التلاميذ، حيث أن المعاني فطرية كامنة في الإنسان.
* قدوة حسنة لتلاميذه من الناحية العقلية والخلقية على السواء.

## ****5-التلميذ في الفلسفة المثالية :****

تنظر هذه الفلسفة للتلميذ على أنه كائن روحي؛ ومن ثم تركز على تربية هذا الجانب و تهمل بقية الجوانب الأخرى، ودور التلميذ في هذه الفلسفة سلبي، يجب عليه الطاعة والانضباط وتلقي المعرفة من المعلم وحفظها واسترجاعها. **“والتلميذ يُعتبر مثاليا إذا جلس صامتا ساكنا ليتمكن من استيعاب المعارف التي تلقى عليه من أجل خزنه وحفظها”.** (جعنيني 2004م: ص125).

ويرى ناصر (2001م، ص: 246) أن التلميذ في هذه الفلسفة يجب أن يتصف بما يلي:

* أن يكون مطيعا ومتعاونا وجديرا بالاحترام.
* أن ينفذ الوصايا والأوامر دون اعتراض.
* أن يخضع كل التلاميذ لمقررات دراسية واحدة.
* التلاميذ الضعاف يرسبون ويعيدون المواد نفسها التي رسبوا فيها.
* العلاقة بين التلميذ والمعلم تتصف بالرسميات.
* أن يتعلم احترام القيم الروحية وقيم الأفراد الآخرين.
* دراسة البيئة المحلية التي يعيش فيها.

# ****أوجه النقد التي وجهت للفلسفة المثالية:****

الفلسفة المثالية شأنها شأن غيرها من الفلسفات تضمنت نواحي إيجابية وأيضاً تم نقد بعض تطبيقاتها. فبالنظر إلى الفلسفة المثالية كفلسفة تربوية محافظة اتسمت بالحفاظ على التراث المعرفي ونقله واعتبرت التربية هي عملية إعداد لحياة مستقبلية فإن هناك بعض النواحي الايجابية الأخرى قد أكدتها تلك الفلسفة.

**المراجع:**

* أبو العينين، علي، وآخرون (1423ه).**الأصول الفلسفية للتربية**. عمان: الأردن. دار الفكر.
* التل، سعيد وآخرون (1982م).**المرجع في مبادئ التربية**. عمان.الأردن. دار الشروق.
* الجعفري، ماهر اسماعيل (2010م) **المناهج الدراسية. فلسفتها، بناؤها. تقويمها**. عمان. الأردن. دار اليازوري.
* الرشدان، عبدالله، وجعنيني، نعيم (1997م). **المدخل إلى التربية والتعليم**.عمان. الأردن. دار الشروق.ص59-60.
* العمايرة، محمد حسن (1999م). **أصول التربية التاريخية والاجتماعية والنفسية والفلسفية**. عمان. الأردن. دار المسيرة.
* النوري،عبد الغني وعبود، عبد الغني (1979م) **نحو فلسفة عربية للتربية**. القاهرة. مصر. دار الفكر العربي.
* اليماني، عبدالكريم علي (2004م). **فلسفة التربية**. عمان. الأردن. دار الشروق.
* بدران، شبل، ومحفوظ أحمد فاروق (1994م). **في أصول التربية**. الإسكندرية. مصر. دار المعرفة الجامعية. ط1
* بدران، شبل، والبوهي فاروق، ومحفوظ أحمد فاروق (2001م). **الأصول الفلسفية للتربية**. الإسكندرية. مصر. دار المعرفة الجامعية. ط1
* جعنيني، نعيم (2004م). **الفلسفة وتطبيقاتها التربوية**. عمان. الأردن. دار وائل.
* شفشق، محمود عبدالرزاق (1982م). **الأصول الفلسفية للتربية**. الكويت. دولة الكويت. دار البحوث العلمية.
* فرحان، محمد جلوب (1989م) **دراسات في فلسفة التربية،**الموصل. العراق. مطبعة التعليم العالي.
* محمد، أحمد الحاج (2003م) **فلسفة التربية**. عمان. الأردن. دار المناهج.
* محمد، عبدالرحمن ابراهيم (1988م) **موقع القيم من بعض فلسفات التربية**. القاهرة. مصر. رابطة التربية الحديثة ج3.
* مرسي، محمد منير (1993م).**فلسفة التربية واتجاهاتها ومدارسها** .القاهرة .مصر. عالم الكتب .
* ناصر، إبراهيم (2001م). **فلسفات التربية**. عمان. الأردن. دار وائل للطباعة والنشر.
* يالجن، مقداد (2008م). **النظريات التربوية في ضوء الاسلام**.الرياض. المملكة العربية السعودية.دار عالم الكتب ط1.

#### (٢)المذهب الواقعي

#### (١) سان سيمون (١٧٦٠–١٨٢٥)

أوجست كونت صاحب «الفلسفة الواقعية»، ولكن فكره تكون بجانب الكونت دي سان سيمون، وتأثر من غير شك بشارل فوريي، وهما مصلحان اجتماعيان، فنقدم الكلام عليهما، وثلاثتهم يصدرون عن نفس الدواعي التي صدر عنها السلفيون، هي أن المجتمع يتدهور فيجب إعادة تنظيمه، وهو لا ينظم إلا بسلطة روحية توحد بين العقول، إلا أن هذه السلطة عند الواقعيين ليست الكنيسة بل العلم الذي يضح حدًّا لفوضى الأفكار، ويوفر أسباب التنظيم والتعمير، وينتهي إلى دين جديد.

كان سان سيمون مغامرًا في الحياة وفي الفكر، تطوع لنصرة الولايات المتحدة في حربها الاستقلالية، وقام بمشروعات صناعية، وفي أثناء الثورة نزل عن لقب الكونتية، وسجن ثم أخلي سبيله، خرج من الثورة بأن العصر الوسيط كان عصر تنظيم عقب انحلال الإمبراطورية الرومانية وحروب البرابرة، فكانت أوربا خلاله مرتبطة بعقيدة مشتركة، ولم يكن القساوسة دجالين كما يزعم ڤولتير، بل كانوا أكثر أفراد الشعب استنارة، ولكن النقد ثم الثورة حطما هذا النظام، فسادت فوضى أخلاقية واجتماعية قوامها الإنكار والأنانية، فيتعين العمل على إقامة نظام جديد بوساطة العلم الواقعي، ولم يكن تلقى ثقافة علمية، فقرب إليه بعض خريجي مدرسة الهندسة ومدرسة الطلب ليتمكن من تدوين موسوعة علمية تُتخذ أساسًا للإصلاح، وكان كونت واحدًا من هؤلاء فكان كاتبًا له ومعاونًا مدة من الزمن، وأخذ سان سيمون عن طبيب مغمور من معاصريه، هو الدكتور بوردان Burdin أن العلوم بدأت تخمينية ثم تدرجت إلى الحال الواقعي بحسب بساطة موضوعها، فتكونت الرياضيات وتبعها الفلك فالكيمياء، وكان هذا الطبيب يقسم تاريخ العقل الإنساني إلى ثلاثة عصور: الأول تخميني يذهب من تعدد الآلهة إلى إله واحد، والثاني وسط بين التخمين والواقعية يذهب من تصور علة غير منظورة إلى تصور القوانين، والثالث واقعي يرمي إلى تفسير العالم بقانون واحد، وقد بدأ هذا العصر منذ قليل، وإذا ما تم تكوين الفسيولوجيا على النمط الذي تسير عليه حصلنا على العلم الواقعي للطبيعة الإنسانية، فأمكن إقامة أخلاق وسياسة واقعية، وتكوين الفلسفة الواقعية باعتبارها العلم الكلي، ووضع الدين الواقعي قوامه تصور جديد للعالم على قاعدة علمية بحتة، وقساوسته العلماء، وكان سان سيمون أول من قال «فلسفة واقعية» و«سياسة واقعية».

ثم بدا له أن التنظيم الجديد بغير حاجة ماسة للتمهيد العلمي، وأن أقرب السبل إليه تسليم زمام الحكم إلى كبار رجال الصناعة والعلم بدل الأشراف والقانونيين، ورفع مستوى الطبقة العاملة من الوجهتين العقلية والاقتصادية، موقنًا أن اتفاق المصالح كفيل بتحقيق الوحدة، وفي سنيه الأخيرة أراد أن يؤسس مسيحية جديدة قائمة على محبة الإنسانية واعتبار الحياة الأرضية غاية لذاتها لا وسيلة لحياة مقبلة غير منظورة، فكان له عدد صغير من الأتباع في حياته وبعد مماته.

#### (٢) شارل فوريي (١٧٧٢–١٨٣٧)

هو أحد آباء الشيوعية الحديثة، وقد دل على طريقة عملية للإصلاح، قال إن العناية الإلهية التي يشهد بوجودها نظام العالم فطرتنا على نزعات إذا اتبعناها بلغنا إلى السعادة الفردية والاجتماعية، فعلى كل فرد أن يختار العمل الذي يوافق ميله، ولا يتسنى هذا الاختيار إلا في فرق phalanges تمثل كل فرقة منها المهن الضرورية لبقائها، أو عدد الميول الممكنة، أو عدد التأليفات الممكنة للنزعات الأصيلة، ويبلغ هذا العدد ١٦٢٠ (!) فيعيش أفرادها في قرية phalanstère وتؤلف كل مهنة جماعة، وفي كل قسم من أقسام المهنة يؤلف العمال جماعة أصغر، بحيث يشعر الكل بتعاون الكل، بخلاف الحال في مجتمعاتنا الكبيرة حيث تتضاءل مكانة الفرد وتغيب عنه علاقته بالمجموع، وإذا كونَّا فرقة من هذا القبيل تكوَّنت بالمحاكاة فرق أخرى، وتلاشى المجتمع «المتحضر» شيئًا فشيئًا وحلَّت محله خلايا اجتماعية، وتبقى الأسرة في كل فرقة، ولكن حرة ممَّا يزعم من قيود وواجبات، وتلغى جميع القوانين التي تحد من الحرية، سواء أكانت قوانين وضعية أم أخلاقية أم دينية، وقد انتشرت هذه التعاليم في فرنسا، وألف فوريي فرقة نموذجية، ولكنها أخفقت، وحوالي منتصف القرن كان لمذهبه في أمريكا مائتا ألف من الأتباع.

#### (٣) أوجست كونت (١٧٩٨–١٨٥٧)

هو الذي حقق أماني سان سيمون، فدوَّن موسوعة علمية، ووضع علمًا سياسيًّا، ودينًا إنسانيًّا، ولد بمونلپتي في أسرة شديدة التعلق بالكثلكة، ولكنه فقد الإيمان منذ الرابعة عشرة، وكان تلميذًا ممتازًا في الرياضيات فالتحق بمدرسة الهندسة بباريس في السادسة عشرة يحصل علومها ويستكمل ثقافته بقراءة كتب فلسفية كثيرة، وبخاصة كتب هيوم ودي مستر ودي بونالد، هذه المدرسة من خلق الثورة، وكانت مركز الثقافة العلمية والفكرة الجمهورية، وكان جل طلابها متشيعين لسان سيمون، وهو في طلعيتهم، فاتصل به في ١٨١٧ وظل كاتبًا له ومعاونًا حتى ١٨٢٢ لما أراد سان سيمون أن يرجئ الإصلاح العلمي ليشرع في الإصلاح الاجتماعي، فخالفه لاقتناعه — بعد قراءة دي مستر — أن الشرط الأول للنجاح إعادة وحدة الاعتقاد إلى العقول كما كان الحال في العصر الوسيط، ولكن بوساطة العلم لا بوساطة الدين، ونشر بهذا المعنى كتابًا بعنوان «مشروع الأعمال العلمية الضرورية لإعادة تنظيم المجتمع» (١٨٢٢) ثم بعنوان «السياسة الواقعية» (١٨٢٤) يعلن فيه أن فلسفة القرن الثامن عشر القائمة على حرية الرأي وسلطة الشعب، فلسفة مفيدة في النقد والهدم عقيمة في الإنشاء؛ لأن هذين المبدأين نقديان لا منظمان، وأن الواجب قبل كل شيء وضع مذهب علمي شامل تقوم عليه سياسة واقعية تمتنع معها حرية الرأي كما تمتنع في الرياضيات أو العلم الطبيعي، إذ يتبين منها أن العلاقات الإنسانية خاضعة لقوانين، وأن النظام الاجتماعي متضامن مع جملة الحضارة كما تبدو في العلم والفن والصناعة، فيستقر المجتمع على خير حال، وذلك هو البرنامج الذي سيعمل فيلسوفنا على تحقيقه.

بدأ إذن بتحرير موسوعة العلوم الواقعية والمحاضرة فيها (١٨٢٦) فأقبل على الاستماع إليه جمهور من العلماء، ولكنه ما ألقى ثلاث محاضرات حتى انتابته أزمة عقلية ترجع إلى مزاجه العصبي وإرهاق العمل وشواغل الحياة، فعنيت به زوجته حتى أعادت إليه اتِّزانه، فاستأنف محاضراته في يناير ١٨٢٩، وأنفق عشر سنين (١٨٣٢–١٨٤٢) في إخراج كتابه الأكبر «دروس في الفلسفة الواقعية» في ستة مجلدات يعرض فيه وقائع العلوم وقوانينها ومناهجها عرضًا منظمًا، ثم نشر كتيبًا بعنوان «مقال في الروح الواقعي» (١٨٤٤) هو خير مقدمة لفلسفته، ودعيت هذه المرحلة الأولى في تحقيق برنامجه بالمرحلة العلمية.

ودعيت المرحلة الثانية بالصوفية، بدأت بأزمة عصبية ثانية كان من أسبابها هيامه بسيدة تعرَّف إليها في ١٨٤٤ وتوفيت بعد سنتين، فاتخذ منها مثال «الإنسانية» وكان يتوجه إليها بالفكر والصلاة كل يوم، وصارت «شيطانه» الذي يوحي إليه أثناء تحريره كتابه الكبير الثاني «مذهب في السياسة الواقعية، أو كتاب في علم الاجتماع يضع ديانة الإنسانية» (١٨٥١–١٨٥٤ في ٤ مجلدات)، واختصره في كتاب «التعليم الديني الواقعي» أو عرض موجز للديانة الكلية (١٨٥٢).

#### (٤) مذهبه: قانون الحالات الثلاث

يرى المذهب الواقعي أن الفكر الإنساني لا يدرك سوى الظواهر الواقعة المحسوسة وما بينها من علاقات أو قوانين، وأن المثل الأعلى لليقين يتحقق في العلوم التجريبية، وأنَّه يجب من ثمة العدول عن كل بحث في العلل والغايات وما يسمى بالأشياء بالذات، ويدلل كونت على نسبية معرفتنا، لا بنقد أفعال العقل كما فعل لوك وهيوم وكنط، بل يعرض ما ظنه تاريخ العقل كما فعل سان سيمون أخذًا عن الدكتور بوردان، فيقول إن العقل مرَّ بحالات ثلاث: حالة لاهوتية، وحالة ميتافيزيقية، وحالة واقعية.

ففي الحالة اللاهوتية كان دأب العقل البحث عن كُنه الكائنات وأصلها ومصيرها، محاولًا إرجاع كل طائفة من الظواهر إلى مبدأ مشترك، وقد وتدرج في ذلك درجات ثلاث: كانت الدرجة الأولى «الفيتشية» Fétiéhismé يضيف فيها إلى الكائنات الطبيعية حياة روحية شبيهة بحياة الإنسان؛ وكانت الدرجة الثانية تعدد الآلهة، وهي أكثر الدرجات الثلاث تمييزًا للحالة اللاهوتية، يسلب فيها عن الكائنات الطبيعية ما كان خلع عليها من حياة، ويضيف أفعالها إلى موجودات غير منظورة تؤلف عالمًا علويًّا، وكانت الدرجة الثالثة التوحيد أي جمع كثرة الآلهة في إله واحد مفارق، وفي هذه الحالة تتسع الشُّقَّةُ ويزداد التضاد بين الأشياء وبين المبدأ الذي تفسر به، وقد بلغت الحالة اللاهوتية أوجَّها في الكثلكة التي تؤلف تأليفًا عجيبًا التفسيرات الفائقة للطبيعة في فكرة إله واحد مدبر للكل بإرادته، فخصائص الحالة اللاهوتية هي أن موضوعها مطلق، وتفسيراتها فائقة للطبيعة، ومنهجها خيالي، هذا من الوجهة النظرية، أما من الوجهة العملية فقد كانت المعاني اللاهوتية أساسًا متينًا مشتركًا للحياة الخلقية والاجتماعية، وكانت هذه المرحلة الأولى مرحلة السلطة، سلطة الكهنة وسلطة الملوك.

وفي الحالة الميتافيزيقية يرمي العقل كذلك إلى استكناه صميم الأشياء وأصلها ومصيرها، ولكنه يستبدل بالعلل المفارقة عللًا ذاتية يتوهمها في باطن الأشياء، وما هي إلا معانٍ مجردة جسمها له الخيال فقال: العلة أو القوة الفاعلية والجوهر والماهية والنفس والحرية والغاية وما إليها، والميل الذي ساقه في الحالة السابقة من الفيتشية إلى تعدد الآلهة فإلى التوحيد، يسوقه هنا أولًا إلى الاعتقاد بقوى بعدد طوائف الظواهر، مثل القوة الكيميائية والقوة الحيوية، ثم إلى إرجاع مختلف القوى إلى قوة أولية هي «الطبيعة»؛ لذا تبلغ هذه الحالة أوجها في مذهب وحدة الوجود الذي يجمع في «الطبيعة» جميع القوى الميتافيزيقية، وكل الفرق بينها وبين الحالة السالفة أن المجرد يحل محل المشخص، ويحل الاستدلال محل الخيال.

أما الملاحظة فثانوية فيها جميعًا، والحالة الميتافيزيقية فترة انتقال وأداة انحلال، هي فترة نقد عقيم ولكنه ضروري، إذ يتناول الاستدلال المعاني اللاهوتية فيبين التناقض فيها، وإنما كان العقل في هذه الحالة يضع معاني أو قوى موضع الإرادات المتقلبة، فإنه يضعف من سلطان القوى المفارقة، هذا من الوجهة النظرية، أما من الوجهة العملية فيبدو الانحلال في انتشار الشك والأنانية، فيفصم الفرد الرباط الذي يربطه بالمجتمع، ويثقف العقل على حساب العاطفة، ويتصور الاجتماع ناشئًا من تعاقد الأفراد، وتقام الدولة على مبدأ سلطة الشعب، ويحكمها القانونيون.

وفي الحالة الواقعية يدرك العقل امتناع الحصول على معارف مطلقة، فيقصر همه على تعرف الظواهر واستكشاف قوانينها وترتيب القوانين من الخاص إلى العام، فتحل هنا الملاحظة محل الخيال والاستدلال، ويستعاض عن العلل بالقوانين أي العلاقات المطردة بين الظواهر، فيكون موضوع العلم الإجابة عن سؤال «كيف» لا عن سؤال «لم» وتكون الحالة الواقعية مختلفة عن الحالتين الأخريين في العناصر الثلاثة جميعًا التي هي الموضوع والتفسير والمنهج، هذه الطريقة هي التي أفلحت في تكوين العلم، ويجب أن يحل العلم الذي تولَّد عنها محل الفلسفة: فكلما أمكن معالجة مسألة بالملاحظة والاختبار انتقلت هذه المسألة من الفلسفة إلى العلم واعتبر حلها نهائيًّا، أما المسائل التي لا تقع تحت الملاحظة فهي خارجة عن دائرة العلم، ويدل تاريخها على أنها لم تتقدم خطوة واحدة منذ أن وضعت، فهو ينطق بأنها غير قابلة للحل، كما أن نجاح العلم الواقعي يقضي بإمكانه وبأنه المجال الحقيقي للعقل، هذا من الوجهة النظرية، أما من الوجهة العملية فتمتاز الحالة الواقعية بقيام علم الاجتماع، وسيأتي الكلام عليه.

هذه الحالات الثلاث متنافرة، ونحن نجدها تتعاقب في كل إنسان، ففي الحداثة نقنع بسهولة بالتفسيرات اللاهوتية، وفي الشباب نقتضي عللًا ذاتية، وفي سن النضج نعول في الأكثر على الوقائع، غير أن هذا التنافر لا يمنع من التقارن؛ فالشخص الواحد قد يقبل تفسيرات لاهوتية أو ميتافيزيقية في بعض الموضوعات، مع قبوله العلم الواقعي في موضوعات أخرى هي على العموم أقل تعقيدًا، وأهل العصر الواحد بنوع خاص نرى بعضهم على حالة وبعضًا آخر على حالة أخرى، وكذلك شعوب الأرض ليسوا كلهم على درجة واحدة من رقي العقل على أن القانون الكلي يبقى صادقًا إذا اعتبرنا الحالة الغالبة في شعب معين وعصر معين؛ فإننا حينئذٍ نرى اللاهوت ينجم أولًا، ثم نرى الميتافيزيقا تعارضه، وأخيرًا يولد العلم الواقعي الذي هو وحده قادر على البقاء؛ لأن الحالتين السابقتين لما كانتا قائمتين على الخيال كانتا دائمًا مبعث ظنون جديدة ومناقشات جديدة، على حين أن العلم يستند إلى الواقع فيجمع العقول على وحدة الرأي ويحل محلهما، لا يتكلف في ذلك محاربتهما بل يتركهما تسقطان من تلقاء ذاتهما.

ولما كانت التجربة محدودة دائمًا، فسيظل دائمًا كثير من الظواهر خارج علومنا، ولما كانت الظواهر متباينة، فيمتنع رد العلوم بعضها إلى بعض، أو رد كثرة القوانين إلى قانون واحد، بل إن في كل علم فروعًا مستقلة، في علم الطبيعة وفي علم النبات وعلم الحيوان، ولا يمكن الأخذ بنظرية لامارك في تطور الأنواع الحية بعضها إلى بعض، فلا يمكن أن تنتهي الحالة الواقعية إلى وحدة مطلقة، كالله في الحالة اللاهوتية، وكالطبيعة في الحالة الميتافيزيقية، فالفلسفة الواقعية جملة القوانين المكتسبة فعلًا بالتجربة، لا جملة قوانين الوجود، غير أننا إذا لم نستطع البلوغ إلى وحدة موضوعية، فبوسعنا أن نبلغ إلى وحدة ذاتية تقوم في تطبيق منهج واحد بعينه في جميع ميادين المعرفة، فننتهي إلى تجانس النظريات وتوافقها، ومن ثمة إلى علم واحد، فالمنهج الواقعي يحقق الوحدة في عقل الفرد، ويحققها بين عقول الأفراد، وهكذا تصير الفلسفة الواقعية الأساس العقلي للاجتماع، ومن هذه الوجهة تجد في معنى الإنسانية المقابل الوحيد الممكن لمعنى الله ولمعنى الطبيعة، وفي الحالة الواقعية الاتصال بين النظر والعمل أوثق منه في الحالتين الأخريين، إذ أن العلم بقوانين الظواهر يسمح بإيجاد الظواهر، بل إن الرغبة في هذا الإيجاد سبب يجعلنا ننتقل إلى هذه الحالة، «العلم لأجل التوقع وبقصد التدبير» ذلك شعار العلم الواقعي؛ لذا يقابل هذه الحالة الصناعة من جهة لكونها عبارة عن استغلال الإنسان للطبيعة، وعلم الاجتماع من جهة أخرى لكونه يكشف لنا عن وسائل التقدم، ولئن كانت الفلسفة الواقعية في غنى عن التفسيرات اللاهوتية والميتافيزيقية، إلا أنها لا تعارضها معارضة مباشرة، بل إنها تعترف باستحالة التدليل على عدم وجود الروحيات كما تقرر استحالة التدليل على وجودها، وبذا تتميز من المذهب الحسي المعروف أو المذهب المادي الذي ينكر الروحيات إنكارًا.

#### (٥) مذهبه: تصنيف العلوم

الفلسفة الواقعية جملة العلوم الواقعية، ويذكر كونت ستة علوم أساسية مرتبة هكذا: الرياضيات، علم الفلك، علم الطبيعة، علم الكيمياء، علم الحياة، علم الاجتماع، هذه العلوم مكتسبة بالاستقراء، حتى الرياضيات فإنها إنما تعتبر علمًا عقليًّا بحتًا؛ لأن موضوعها من البساطة بحيث نغفل عادة أصله الاستقرائي، ولكن ليس هناك علم عقلي بحت، ومبدأ هذا التصنيف تزايد التركيب وتناقص الكلية، أي النسبة العكسية بين المفهوم والما صدق، فكلما كان المفهوم بسيطًا كان الما صدق واسعًا، والعكس بالعكس، وهذا التصنيف هو أيضًا تصنيف تعقل متناقص وتجربة متزايدة، أي كلما نزلنا درجة قل مجال العقل البحت وازداد شأن التجربة، فالرياضيات في رأس الجدول لا تتبع علمًا أخر ويتبعها باقي العلوم لأن موضوعاتها وقوانينها أكثر بساطة وكلية، وعلم الاجتماع في أخر الجدول يتبع سائر العلوم ولا يسيطر على علم لأن موضوعاته وقوانينه أكثر تعقدًا وتخصصًا، وبالنزول من الرياضيات إلى علم الاجتماع نرى التركيب يتزايد والكلية تتناقص؛ وذلك لأن الرياضيات لا تنظر لغير الكم المجرد، وهو أبسط الأشياء وأقلها تعيينًا، فيضيف إليه علم الفلك معنى القوة فيدرس الأجسام الحاصلة على قوة جاذبة وهي الأجرام السماوية، وعلم الطبيعة يضيف الكيف إلى القوة فيدرس القوى المتمايزة بالكيف، كالحرارة والضوء، وتضيف الكيمياء الخصائص الملازمة لكل نوع كيميائي من الأجسام، ويضيف علم الحياة إلى المادة اللا عضوية التركيب العضوي والظواهر الخاصة به، ويضيف علم الاجتماع ما ينشأ بين الأحياء من روابط مستقلة عن تركيبها، ولئن كانت جميع العلوم محصلة بمنهج واحد كما سبق القول، إن هذا المنهج يتعدل في كل علم تبعًا لموضوع هذا العلم: فالرياضيات، أو بالأحرى الحساب؛ لأنه أكثر بساطة وكلية من الهندسة والميكانيكا، يتضمن شروط العلم بالإطلاق أي جميع أنواع التحليل والاستدلال، بحيث تعود العلاقات الرياضية فتظهر في العلاقات المعقدة وهذا وجه التجانس بين العلوم، وعلم الفلك يعلمنا فن الملاحظة؛ فإنه يراجع بالاستقراء فروضًا يضعها بالقياس، ويعلمنا علم الطبيعة فن التجربة، وتعلمنا الكيمياء فن التصنيف، ويعلمنا علم الحياة الطريقة المقارنة، ويعلمنا علم الاجتماع الطريقة التاريخية، وكلما كان موضوع العلم بسيطًا كليًّا كانت الطريقة القياسية متقدمة فيه على الطريقة الاستقرائية، وأخيرًا إن هذا الترتيب المنطقي مطابق لتدرج ظهور العلوم أو بعبارة أدق لتكونها تكونًا واقعيًّا، فإن الحالات الثلاث تبدو في تاريخ كل علم، فكلما كان موضوع العلم أعقد استغرق وقتًا أطول في اجتياز هذه المراحل؛ لذا كانت العلوم المجردة هي التي تبلغ أولًا المرحلة النهائية، ولا تبلغ إليها العلوم المشخصة إلا فيما بعد.

نلاحظ على هذا التصنيف أربع ملاحظات: الأولى أنه يبدأ بالكم، وهناك معانٍ أكثر منه بساطة وكلية هي المعاني المعروضة في المنطق والميتافيزيقا، ولكن كونت لا يرى أن للعقل موضوعًا خاصًّا ولا مظهرًا إلا في موضوع، ويذهب في هذا السبيل إلى حد إنكار استخدام الإشارات في الرياضيات بدل الكميات وإنكار حساب الاحتمالات لأنه عبارة عن إنكار فكرة القانون، وإنكار كل تفسير يجاوز المشاهد، مثل تفسير انتشار الضوء بالتموج أو غيره، وتفسير أصل الأنواع الحية بالتطور، وكل وجود لا يقع تحت الحس، مثل وجود الأثير أو الذرات، ويدعو كل هذا ميتافيزيقا، فهو يبتر من العلم مقدماته ومبادئه، ويقصي منه فروضًا كثيرة نافعة، الملاحظة الثانية أنه يجعل من الفلك علمًا أساسيًّا ويضعه في المحل الثاني، والواقع أن علم الفلك يتقوم بالميكانيكا وعلم الطبيعة والكيمياء، فهو إذن علم تطبيقي تابع لهذه العلوم، ويجب أن ينزل عن مكانه لعلم الميكانيكا الذي يتخذ من الحركة موضوعًا له، وهي ظاهرة لا يمكن ردها إلى سواها، وهي بادية في جميع الظواهر الطبيعية، الملاحظة الثالثة أنه لا يجعل مكانًا خاصًّا لعلم النفس، بل يقسم كونت دراسة الإنسان بين علم الحياة وعلم الاجتماع حيث يدرس الإنسان في آثاره الخارجية، والواقع أن علم النفس يجيء بينهما متصلًا بالأول موصلًا للثاني، وينكر كونت إمكان ملاحظة النفس فيقول: إننا نلاحظ جميع الظواهر بالعقل، فبأي شيء نلاحظ العقل نفسه؟ لا يمكن قسمة العقل إلى قسمين أحدهما يفكر والآخر يلاحظ التفكير، أما الانفعالات النفسية فتمكن ملاحظتها لأنَّ لها عضوًا غير عضو العقل، ومعنى هذا أن المادة لا تنعكس على نفسها، ولما كان العقل عند كونت وظيفة عضوية فهو لا ينعكس على نفسه ولا يعلم أفعاله، ولكن هذا الانعكاس وهذا العلم واقعان، وعلم النفس قائم، فالمنطق يقضي بأن تنكر عضوية العقل، وقديمًا استدل أرسطو على روحانية النفس بانعكاسها على ذاتها، الملاحظة الرابعة أن كونت ينكر بذلك أصالة الظواهر النفسية، وأن جدوله إذ يحتم تبعية العلم الأدنى للعلم الأعلى، يحتم تبعية الظواهر النفسية والظواهر الاجتماعية للرياضيات، وهو لم يبين هذه التبعية، ولم يبين الفرق بينه وبين الماديين، فما المذهب الواقعي في حقيقة الأمر إلا المذهب المادي، مع استدراك متواضع بصدد الروحيات لا يبدو له أي أثر عملي.

#### (٦) مذهبه: علم الاجتماع

هذا العلم من إبداع أوجست كونت، وقد خصص له ثلاث مجلدات من كتابه «دروس في الفلسفة الواقعية»، دعاه Saciologie فذاع هذا الاسم وعرفه بأنه «العلم الذي يتخذ له موضوعًا ملاحظة الظواهر العقلية والأخلاقية التي بها تتكون الجماعات الإنسانية وتترقى»، وكثيرًا ما يسميه بالعلم الاجتماعي الطبيعي Physique Saciale ليدل على منهجه الاستقرائي وليميز بينه وبين علم السياسة الذي ينهج نهجًا قياسيًّا ابتداء من فكرة الطبيعة الإنسانية أو من غاية للدولة توضع أولًا، وهذا لا يمنع من أن يتضمن علم الاجتماع مسائل جوهرية من علم النفس والاقتصاد السياسي والأخلاق وفلسفة التاريخ، والعلم فيه لأجل العمل، فإننا — ولو أن الإنسانية تنمو طبقًا لقوانين ضرورية — نستطيع استعجال التقدم وتلطيف الأزمات بتوفير الظروف الملائمة؛ وذلك إما بتعديل ظروف الحياة المادية كالتربة الغذاء، أو بتعديل ظروف الحياة الاجتماعية بالأخذ عن حضارات مختلفة أو بتدبير حكومي، ويقسم أوجست كونت علم الاجتماع إلى قسمين أحدهما الاجتماع الساكن S. statique يفصح عن الشروط الدائمة لوجود المجتمع أي الأوضاع الملازمة له، والقسم الأخر S.dynamique يفحص عن قوانين نمو المجتمع أي تطور هذه الأوضاع، والفكرة الأساسية في القسم الأول هي فكرة النظام، وفي القسم الثاني فكرة التقدم، والقسمان مرتبطان ارتباطًا وثيقًا، إذ أن النظام والتقدم مترتبان الواحد على الأخر، وهذا ما تغفل عنه المدرسة الرجعية والمدرسة الثورية على السواء، الأولى تتمسك بالنظام، والثانية تدعو إلى التقدم، وليس هذا التقسيم خاصًّا بعلم الاجتماع، ولكنه مشترك بين العلوم، ففي الرياضيات تنظر الهندسة إلى العالم في حالة السكون، وتنظر إليه الميكانيكا في حالة الحركة، وفي عالم الجماد ينظر علم الطبيعة إلى القوى الطبيعية في حالة التوازن، وتنظر إليها الكيمياء في حالة الفعل، وفي عالم الحياة يدرس علم التشريح تركيب الأعضاء فيمثل السكون، ويدرس علم الفسيولوجيا وظائف الأعضاء فيمثل الحركة.

من وجهة الاجتماع الساكن يجب أولًا الفحص عن أصل الاجتماع، لا يمكن أن يكون هذا الأصل حسبان الفرد للربح الذي يعود عليه من العيش مع أمثاله، إذ أن الربح لا يبين إلا إذا حصل الاجتماع ومضى عليه وقت كافٍ، إنما الدافع إلى الحياة المشتركة غريزة مستقلة عن حساب الفرد، ونحن نرى العاطفة تسبق المعرفة في كل ميدان، على أن الأنانية أقوى في الأصل من هذه الغريزة الغيرية، ثم تخضع لها بنمو العقل والتعاطف، وإنما ينمو العقل والتعاطف بالحياة الاجتماعية، وإن الفلسفة الواقعية لتعاون على ذلك بتقريرها أن نمونا كله يتحقق في المجتمع وبوساطته، وحالما يوسع المرء عاطفته حتى تستوعب النوع الإنساني أجمع، يحصل على رضا حاجته للخلود بأن يعتبر بقاء النوع امتدادًا لحياته الخاصة، ومتى وجد المجتمع كان وحدة مؤلفة من أجزاء متفاعلة حتى إن أحدها لا يتغير إلا وتتغير أجزاء أخرى، أجزاء المجتمع أو شروط وجوده طائفتان: مؤسسات ووظائف، أي شروط موضوعية وشروط ذاتية؛ ذلك أنه لما كان المجتمع لا يصير ممكنًا إلا بتغلب الغيرية، فقد مسَّتِ الحاجة إلى ثلاث مؤسسات لتحقيق هذه الغلبة: فأولًا ومن حيث الحياة المادية نجد الملكية شرطًا أساسيًّا، إذ أن المالك ينتج أكثر مما يستهلك فيدخر الفرق لفائدة الغير، وثانيًا ومن حيث الحياة الأخلاقية نجد الأسرة وهي الوحدة الاجتماعية وأوثق الجماعات حتى إن تسميتها اتحادًا أصح من تسميتها اجتماعًا، فيها تظهر البذور الأولى للاستعدادات التي تعين المجتمع، وفيها يتعلم الفرد أن يجاوز نفسه ويسود التعاطف على الغرائر الشخصية، فهي ضرورية كتمهيد بين الفرد والمجتمع من وجهين: أحدهما أنها تلاءم ملاءمة طبيعية بين الطباع والأخلاق المختلفة الناشئة من استعدادات مختلفة؛ فإن الاجتماع يقتضي تنوع الأفراد واتفاقهم في آنٍ واحد، والوجه الآخر هو أن الأسرة هي المدرسة التي تولد فيها العواطف الاجتماعية متمثلة في التضامن يبدو في تعاون الوالدين على تربية البنين، وفي الطاعة تبدو في انصياع البنين لأوامر الوالدين الرامية إلى قمع الأنانية، وفي الاقتصاد يبدو في تدبير التراث العائلي احتياطًا للمستقبل، وثالثًا ومن حيث الحياة العقلية نجد اللغة وسيلة الاتصال بين الأفراد، فيشتركون في الأفكار والعواطف ويؤلفون رأس مال عقلي كما تجمع الملكية رأس مال مادي، ومما تجب ملاحظته أن الصلة وثيقة بين الأفكار والأخلاق من جهة وبينها وبين المؤسسات من جهة أخرى، بحيث لا يسع أية سلطة، رجعية كانت أو ثورية، أن تحصل على نتيجة ما بفرض مؤسسات مغايرة للأفكار والأخلاق السائدة، ولئن كانت المؤسسات مصدر تأثير في الأفكار والأخلاق، إن هذا التأثير يقتضي فترة من الزمن هادئة، ويبدو خاصة في طفولة النوع الإنساني، وأما الوظائف فهي وجوه النشاط المقتضاة للحياة الاجتماعية، ومن هذه الوجهة نجد أن الخاصية الجوهرية لكل مجتمع هي تنوع الأعمال وتناسقها، ولهذه الخاصية أساس هو جملة القوى الاجتماعية من مادية وعقلية وخلقية، ولها مدبر هو السلطة، ولها رباط موحد هو الدين؛ فالقوة المادية تقوم على الكثرة والثروة، وتخص رجال الحرب ورجال الصناعة، والقوة العقلية ترجع إلى العلماء والكهنة، والقوة الأخلاقية مزية المرأة التي هي أكبر عامل على نمو العواطف الغيرية، إلا أن المرأة لا تزاول هذه القوة إلا في الأسرة بسبب ضعفها الطبيعي، والسلطة ضرورية لكل مجتمع، والدين ضروري كذلك، وسنتكلم عنه فيما بعد.

ومن وجهة الاجتماع المتحرك يمكن رد أقوال كونت فيه إلى أربعة قوانين: الأول قانون التطور نفسه، والثلاثة الأخرى خاصة بقوانا الثلاث وهي العقلية والعملية والعاطفية، فأما التطور فخاصية الإنسان لأنه من دون سائر الحيوان حاصل على قوى قادرة على التقدم المتصل، لكن تقدم الإنسانية لا يتجه نحو غاية مطلقة، والفلسفة الواقعية لا تعترف بالمطلق، بل نحو تكامل الحالات المكونة للحياة الاجتماعية، كما يتكامل الجنين بمروره بسلسلة معينة من الحالات وهذا التقدم في تاريخ الإنسانية ضروري مطَّرد، كما هو شأن كل قانون طبيعي، دون أن يصل أبدًا إلى الكمال المطلق، وأما قانون التقدم العقلي فهو قانون الحالات الثلاث المذكورة آنفًا، وعليه يتمشى التقدم العملي، فإن الحالة اللاهوتية تقابلها حالة عسكرية، وتقوم أهمية هذه الحالة فيما تطبع عليه الناس من نظام واطِّراد، وهما الشرطان الضروريان لكل كيان سياسي، وفيها تتركز القوى حول غايات مشتركة مسيسة الحاجة، وما كان إلا لقوة خارجية أن تكون الوحدة وتصونها، فالحرب هي التي تتيح النمو للمجتمع في مرحلته الأولى، وتستتبع الحرب الرق لضرورة اضطلاع الرقيق بالأعمال المادية كي يتوفر المحاربون على أعمالهم الحربية، ويقابل الحالة الميتافيزيقية فترة تئول فيها السلطة إلى الفقهاء فيميلون بالحكم من الملكية إلى الديمقراطية، وتتحول العسكرية من هجومية إلى دفاعية، ويضعف الروح العسكري شيئًا فشيئًا ويقوى روح الإنتاج، وتحاول الطبقة الوسطى التقدم إلى المحل الأول وتطالب بحقوق سياسية، ويحاول الفقهاء إيجاد التوازن بين الدعاوى المختلفة وهذه حالتنا الراهنة، وهي حالة انتقال غامضة مضطربة، ويقابل الحالة الواقعية الحالة الصناعية، يرجع فيها إلى القوى المنتجة تعيين نظام المؤسسات وتوزيع السلطات، فتحل المسائل الاجتماعية محل المسائل السياسية، ويسير العمال مع ميل الفلسفة الواقعية إلى تقديم الواجبات على الحقوق، حتى يتركز اهتمام الجميع في حل المعضلة الاجتماعية الكبرى التي هي توفير العمل والنمو الروحي للجميع، وأما قانون التقدم العاطفي فيمضي من الأنانية إلى شيء من الغيرية، ثم لا تزال الغيرية تتقدم حتى تسود سيادة تامة تمشيًا مع القانونين الآخرين؛ فاتحاد الأفراد في الأسرة، واتحاد الأسرة لأجل الحرب، وتعاون الجميع لأجل ازدهار الصناعة، تلك مراحل نمو الغيرية.

هذا القانون الأخير صلب علم الأخلاق، ولم يكن كونت عالج هذا العلم إلا في الفصل الأخير من علم الاجتماع، ثم اقتنع بأهميته العظمى لتعزيز العاطفة الاجتماعية، واعتزم أن يجعل منه علمًا قائمًا برأسه يكون سابع العلوم الرئيسية، فيصير هو من ثَمَّةَ أعقد العلوم، ونصير سائر العلوم أجزاء له، وفي رأيه أن المهمة التي يجب على الفلسفة الواقعية أن تعمل لها هي محو فكرة «الحق» الراجعة إلى أصل لاهوتي من حيث إنها تفترض سلطة أعلى من الإنسان، وحصر الأخلاق كلها في فكرة «الواجب» ذلك «الميل الطبيعي إلى إخضاع النزعات الذاتية لصالح النوع أجمع» بحيث يصير شعارنا «الحياة لأجل الغير».

إن فكرة الواجب آنية من الروح الاجتماعي الذي تحققه الفلسفة الواقعية إذ تبين الفرد عضوًا من أعضاء النوع، وتستنبط قوانين سيرته من النظام الكلي للأشياء لا من مصلحته الخاصة فحسب، وأرفع المعاني في ميدان الأخلاق معنى الإنسانية بما هي كذلك، أي الإنسانية التي يتوقف تقدمها على تضافر الأفراد والجماعات، والعلم الواقعي مفيد جدًّا لعلم الأخلاق إذ من المهم جدًّا تعيين مبلغ التأثير المباشر وغير المباشر لكل ميل وكل فعل في الحياة الفردية والاجتماعية.

#### (٧) مذهبه: ديانة الإنسانية

خطا كونت خطوة أوسع فبلغ إلى الدين، إنه ينعت دينه بالواقعي، والحقيقة أن هذا الدين يكاد يكون كله ثمرة العاطفة والخيال في تكوينه والإحساس به، كان فيلسوفنا قد وضع العقل في المحل الأول يستكشف قوانين الوجود ويؤثر في العاطفة فيحدث أخلاقًا ومؤسسات اجتماعية، وها هو ذا الآن يرى أن قيمة العقل تنحصر في نتائجه العملية، وأن هذه النتائج تتوقف على الظروف الخارجية في حين أن العاطفة توفر لنا رضًا باطنًا مباشرًا، فيقدم العاطفة إلى المحل الأول ويطلب إليها إنارة العقل فينتهي إلى مثل الحالة اللاهوتية التي اعتبرها طفولة النوع الإنساني، حتى إنه يتبع في ذلك منهجًا يخالف المنهج العلمي فينقطع عن كل جديد في العلم والأدب ويتوفر على الموسيقى والشعر الإيطالي والإسباني، ويطالع كتاب «التشبه بالمسيح» فيتسبدل الإنسانية بالله في كل موضع منه ويستعين به على تعمق فكرة الإنسانية والإخلاص لها على مثال الصوفيين، ويلزم من ذلك تقديم الفن على العلم من حيث إن مصدر الفن العاطفة وإن الفن يصور مُثُلًا عليَا تهذب أفكارنا وغرائزنا، وقد حدا هذا الموقف ببعض تلاميذه الأقربين إلى اعتزاله وعدِّه خارجًا على الفلسفة الواقعية الخالصة، بيد أن من الحق أن نذكر أن علم الاجتماع الساكن قد عد الدين أحد الأوضاع الملازمة للمجتمع، وأنه كان من المتعين على كونت الاحتفاظ به مع الملاءمة بينه وبين المذهب الواقعي، فلا يمكن أن يقال إن الدين خاطر طارئ على فكره أثارته الأزمة العصبية الثانية، ولسنا ندري على أية صورة كان يجيء الدين المتسق مع العقل الواقعي، أما الصورة التي رسمها كونت فنجملها فيما يلي:

الدين خاصية النوع الإنساني، وتعريفه أنه المبدأ الأكبر الموحد لجميع قوى الفرد ولجميع الأفراد فيما بينهم؛ وذلك بنصب غاية واحدة لجميع الأفعال، وقد سبق القول أن معنى الإنسانية أرفع المعاني من الوجهة الذاتية، وأنه هو الذي يكفل وحدة المعرفة إذ تحصل هذه الوحدة بالنظر إلى العالم من حيث علاقاته بالإنسانية، وهذا المعنى واقعي ينطق به التاريخ، فليس يوجد الفرد إلا بفضل الماضي، وليس يستمد أسباب الحياة المادية والعقلية والخلقية إلا من الإنسانية، بحيث نستطيع أن نقول إن الأموات أحياء أكثر من الأحياء أنفسهم، فديانة الإنسانية عبادة الإنسانية باعتبارها «الموجود الأعظم» الذي تشارك فيه الموجودات الماضية والحاضرة والمستقبلة المساهمة في تقدم بني الإنسان وسعادتهم، والعبادة مشتركة وفردية: تقوم المشتركة في أعياد تذكارية تكريمًا للمحسنين إلى الإنسانية، فيملؤها السرور وعرفان الجميل، وقد وضع كونت «تقويمًا واقعيًّا» دل فيه على كل يوم وكل شهر بأسماء الرجال الذين امتازوا بالعمل على تقدم الإنسانية، وفي العبادة الفردية يتخذ الأشخاص الأعزاء على الفرد نماذج للمثل الأعلى، ولما كانت كرامة الفرد تقوم في كونه جزءًا من «الموجود الأعظم» كان واجبه أن يوجه جميع أفكاره وأفعاله إلى صيانة هذا الموجود وإبلاغه حد الكمال، وهكذا تنطوي الغيرية على الواجب الأعظم وعلى السعادة العظمى جميعًا.

ويعهد بتدبير العبادة التربية إلى هيئة إكليريكية أعضاؤها فلاسفة شعراء أطباء معًا، مهمتهم استكشاف ما يكفل خير «الموجود الأعظم» وتحقيق ما حققته الكنيسة في العصر الوسيط أو أرادت تحقيقه من أفكار جليلة عميقة، ولما كانت «الواقعية» قد تحررت من الأوهام القديمة فلا بأس عليها أن تعود إلى التصور الفيتشي للطبيعة فتضيف إلى الأشياء نفسًا وحياة، وهذه الإضافة مصدر قوة للغة والفن وكل ما من شأنه أن يفيد في بقاء «الموجود الأعظم» ونمائه، وتعتبر السماء أو الهواء «الوسط الأعظم» الذي تكونت فيه الأرض التي هي «الفيتش الأعظم» فيؤلفان مع «الموجود الأعظم» الثالوث الواقعي، وبعد الفلاسفة الذين هم بمثابة الدماغ من الجسم، يأتي النساء وهن بمثابة أعضاء العاطفة، وواجبهن إثارة عواطف الحنان والغيرية الكفيلة باستكمال «الموجود الأعظم»، وبعدهن يجيء رجال الصناعة والمال وهم بمثابة أعضاء التغذية، وأخيرًا يجيء العمال وهم بمثابة أعضاء الحركة.

تلك هي ديانة الإنسانية مسخ بها كونت الديانة المسيحية، ونصب نفسه كاهنها الأكبر، ووضع لها شعارًا: المحبة كمبدأ، والنظام كأساس، والتقدم كغاية، فكان له بعض الأشياع في فرنسا وإنجلترا والسويد وأمريكا الشمالية والجنوبية، تبعوا في كل بلد كاهنًا أكبر وأقاموا معابد، ولا نظننا بحاجة إلى التنبيه على غرابتها وتهافتها، ولا على ضعف النظرية الأساسية في المذهب وهي نظرية الحالات الثلاث، فقد أقر كونت أن الرياضيات وجدت واقعية أول ما وجدت، وقليل من التفكير يدلنا على أن الإنسان ما كان بقي على سطح الأرض لو لم يتعرف خصائص الأشياء منذ أول أمره فيفيد من النافع ويحتاط للضار ويصطنع الأسلحة والآلات، فالحالات الثلاث أولى بها أن تكون متعاصرة متلازمة مع تفاوت فيما بينها في كل عصر وكل فرد، وأن يكون لكل منها قيمته، ولكن كونت اقتنع بنسبية المعرفة ورأى أن يبررها بهذه النظرية، وبهره العلم التجريبي فحصر فيه كل الحقيقة وجاءت فلسفته الواقعية هي الفلسفة المادية بالرغم من تحفظه إذ أنها تؤدي إلى النتيجة نفسها وهي إنكار الميتافيزيقا، ونحن نقصر فضل كونت على طائفة كبيرة من الأفكار الجزئية العميقة في العلوم والاجتماع.

#### (٨) جوزيف پرودون (١٨٠٩–١٨٦٥)

نختم هذا الفصل بذكر اثنين من الاشتراكيين أرادا أن ينظما المجتمع تنظيمًا واقعيًّا، أولهما پرودون كان عامل طباعة ولكنه تثقف بالقراءة الكثيرة، ثم كتب، فجاءت كتاباته مزيجًا يعوزه الوضوح والانسجام من ملخصات قراءاته ومن آراء خاصة، أهم كتبه: «ما الملكية؟» (١٨٤٠) و«خلق النظام في الإنسانية» (١٨٤٣) و«المتناقضات الاقتصادية» (١٨٤٦) و«العدالة في الثورة الفرنسية وفي الكنيسة» (١٨٥٨) و«الحرب والسلم» (١٨٦١)، وهو ينتقد فيها على السواء مذهب الحرية والمذهب الشيوعي، يقول إن الحرب ضرب من حكم الله ويشيد بالسلم، يحمل على الاستبداد ولا يؤمن بالاقتراع العام …

مذهبه الخاص قائم على فكرة العدالة، وهو يعرفها بأنها «حقيقة كلية تتجلى في الطبيعة بقانون التوازن، وفي المجتمع بتبادل أساسه تساوي الأشخاص»، ومن فكرة العدالة هذه يستنبط نظامًا اقتصاديًّا يسميه «التعاون» أو «التبادل» ويرجو تحقيقه حين يصل العمال إلى السلطة بفضل الاقتراع العام فيديرون المشروعات والمصارف وغيرها من المؤسسات الاجتماعية بحيث يجعلون لكل عمل مكافأة من جنسه أي على قدره؛ فإن الواجب على كل إنسان أن يعمل لكي يعيش ويحق له أن يقتني ملكًا بنتاج عمله، والملكية سبب من أسباب الحرية، ولكن كل ثروة أو كل ملكية تجيء من غير طريق العمل هي سرقة، كالفائدة على رأس المال، فإن المال عقيم بطبيعته فلا ينبغي أن ينتج ربحًا يتيح لصاحبه الحياة بلا عمل، إن هذا تناقض وإنه منافٍ للعدالة، هكذا كان قد قال أرسطو والمدرسيون، ويوجد عند پرودون أفكار أخرى محافظة، مثل أن الزواج عقد غير قابل للفسخ لأنَّه عبارة عن التوحيد بين الزوجين، وقد كان له أثر عميق في الحركة النقابية والحركة التعاونية والحركة السلمية.

#### (٩) لويس بلان (١٨١١–١٨٨٦)

ثوري ساهم في ثورة ١٨٤٨ وأسس «مصانع قومية» أخفقت وأدى إخفاقها إلى اضطرابات دموية، هذه المصانع كانت تطبيقًا لمذهب بسطه في كتيبين: أحدهما في «تنظيم العمل» (١٨٤٦) والآخر في «الحق في العمل»، ويرجع مذهبه إلى ما يأتي: لكل إنسان حق طبيعي في أن يحيا، ولا يتحقق هذا الحق إلا بإحدى وسيلتين هما الملكية الخاصة والعمل، أما الملكية الخاصة فيستغلها في المجتمع الرأسمالي نفر من الأغنياء يركزون الثروات في أيديهم ولا يدعون للسواد سوى العمل بأجور دنيئة مع التعرض للعطلة، فيحرمونهم فعلًا حقهم في الحياة، والعلاج الوحيد لهذه الحالة هو أن تتملك الدولة جميع الموارد فتوفر عملًا لكل مواطن وتوزع النتاج على الجميع بالقسطاس، وهذه هي الشيوعية، ولا يدري أصاحبها أنها تجر مساوئ هي شر من مساوئ الرأسمالية.

**(٣)البراغماتية:**

تعريف الفلسفة البراغماتية ما هو أصل كلمة براغماتية؟ إنّ لفظَ كلمة براغماتية مشتقٌّ من أصول يونانيّة وتعني "عَمَل"، وتؤخذ منها كلمتا: مزاولة وعَمَلِي، ويعدّ تشارلز بيريس أول من أدخل هذا اللفظ في الفلسفة سنة 1878م، من خلال مقاله الذي حمل عنوان "كيف نجعل أفكارنا واضحة"، وقد أشار فيه إلى أنّ عقائدنا هي في الواقع قواعد للسلوك والأداء، وكلّ ما نحتاجه لإنشاء معنى لفكرة ما هو أن نحدّد أيَّ سلوكٍ هو الأصلح لإنتاج هذا المعنى، وكي تكونَ الفكرة واضحة، فكلّ ما يجب أخذه بعين الاعتبار هو ما يترتّب عليها من آثار ذات طابع عمليّ ومن الممكن تصوّرها.1 تاريخ ظهور الفلسفة البراغماتية ما هو تاريخ البراغماتية؟ لم تَلقَ كلمة براغماتية رواجًا كبيرًا عندما وظّفها بيريس لأول مرة في مقاله الفلسفيّ، لكن بعد بعد مرور ما يقارب العشرين عامًا بدأت كلمة براغماتيّ تنتشر على صفحات المجلات،2 لكنّ فَهْمَ البراغماتية كمعنى قائل بأنّ الحقائق قائمة على النتائج ممّا يعني عدم ثباتها سيعود بنا إلى الفلسفة اليونانية وفكرة هيراقليطس بأنّه لا شيء ثابت والحقائق تتغيّر، والحقائق المطلقة ليست موجودة على أرض الواقع، فكل شيء في صيرورة، وقد انتشرت البراغماتية كمذهب فلسفيّ له أصوله في الولايات المتحدة الأمريكية ومنذ بدايات القرن العشرين، وتعدّ من أسس النظام الرأسمالي القائم على المنافَسة الفرديّة.3 مبادئ الفلسفة البراغماتية ماهي أبرز المبادئ التي تقوم عليها البراغماتية؟ إنّ الفلسفة البراغماتية تقوم على مجموعة من المبادئ التي تعدّ أساسًا لها: حيازة الأفكار الصحيحة يعتقد فلاسفة البراغماتية بأنّ حيازة الفكرة الصحيحة هي بمعنى آخر حيازة أدوات للعمل، والأداء لا تقدّر بثمن، وأنّ واجبنا للوصول إلى الحقيقة يجب أن يسوغ بموجب أسباب عمليّة ودواعي عمليّة بارعة وفائقة، كما أنّ الوصول إلى الحقيقة ليس هدفًا في ذاتِه، وهو أبعد ما يكون عن ذلك، ولا تزيد عن كونها وسيلة أو أداة أوّليّة لبلوغ ضروب مختلفة من السّعادة والرّضا والسرور.4 النفعية تنبغي الإشارة إلى علاقة النفعيّة بالبراغماتية، فالفكرة الصحيحة هي فكرة نافعة بالضرورة؛ وذلك لأن المقام أو المأوى الذي هو موضوعها أو هدفها نافع، ويترتب على ذلك أن القيمة العملية للأفكار الصحيحة تشتق بصفة أولية من الأهمية العملية لموضوعاتها.5 الواقع أو التجربة هو المقياس لأي نظرية أو فكرة تقوم النظرية البراغماتية في المنهج على أن المنهج التجريبي هو النّموذج الذي يجب أن تسير عليه في كلّ ممارسة ديموقراطية، فلا وجود لديموقراطية مثاليّة كشكل من أشمال الحكم فحتى الديموقراطية تجربة اجتماعية ونمط حياة.6  
  
رواد الفلسفة البراغماتية من هم أشهر الفلاسفة البراغماتيون؟ للفلسفة البراغماتية رواد بارزون وهم: تشارلز بيريس تشارلز ساندرز بيريس وُلد في عام 1839م وتوفّي سنة 1914م، وكان بمثابة أول فيلسوف أمريكي يخرج على العالم بفكر جديد يبلور فيه الحياة العقلية كما تمثلت في القارة الجديدة، وهو الذي خلق الفلسفة البراغماتية خلقًا، ثمّ بلغ بها غاية كمالها، حتى جاء بعده التابعان الكبيران االلذان سارا على نهجه، وهما: وليم جيمس وجون ديوي ولم يسعهما إلّا أن يتحركا في الإطار الذي وضعه تشارلز بيرس بنفسه على الرغم بما قاما بتعديل وتحويل.10 يسرد بيريس عن نفسه أنّه عندما كان يدرس المدارس الفلسفية كلها وتتبع طرائق الفكر عند أصحابها وكان ينظر إليها من وجهة نظر فريدة من نوعها، وهي وجهه نظر الباحث العلمي في المعمل بعيدًا عن الرؤية الدينية المطلقة، فيبحث عن كلّ ما هو جديد والذي لم يعرفه أحد بعد ولم يقم بالبحث من وجهة نظر الفيلسوف اللاهوتي الذي يتناول مادته وكأنها معصومة من الخطأ، ومن هنا يتضح لنا موقف البراغماتية من الدين واللاهوت اللذيْن تعاملا بالمطلق مع المفاهيم، وهذا بعكس ما تَعامَل به البراغماتيون معَها.11 وجّه بيريس نقدًا كبيرًا للفلسفات المثاليّة، خاصّة المثالية الألمانية في ألمانيا، ليصل إلى نتيجة بعد دراسة طويلة، وهي أنّ هذه المدارس الفلسفية ليست ذات قيمة تذكر من حيث المنهج على الرغم من غناها بالعديد من الإيحاءات الفلسفية، إلا أنّه توقّف عند الفلسفة الإنجليزية التي تتميز بالطابع والمنهج التجريبي، وعلى الرّغم من أنه يراها فقيرة وساذجة إلى حدّ ما، إلّا أن هذه الأخيرة، ويقصد الفلسفة التجريبية في إنجلترا، تظلّ أكثر رسوخًا من الفلسفة مثالية هيغل وعقلانية ديكارت إذا ما نظرنا إلى المنهج على أنه وسيلة مؤدّية إلى نتيجة جديدة.12 ويُوجز بيريس فلسفته أو موقفه الفلسفي، فيقول إنّ الفلسفة يمكن وصفها بأنها محاولة الفيزيائي أن يصوّر بصعوده الكون تصويرًا لا يتعدّى ما تسمح به مناهج البحث العلمي ويؤكّد بيريس الالتزامَ بمنهجية البحث العلميّ أو المنهجية التجريبيّة، ويستعين بكل ما سبقه الفلاسفة به، ويؤكّد أنه لم يَسِر على مسار الفلاسفة الميتافيزيقيّين الذين اتّبعوا منهج الاستنباط الذي يقوم على فروض تبدأ بمقدمة كبرى ثم مقدمة صغرى لنصل إلى نتيجة وهي قاطعه الصواب، لا تحتمل أيّة تعديلات وتصويبات في ضوء ما تكتشفه البحوث العلمية.13 يؤكّد بيريس أنّ طريقته في البحث هي طريقة العلم نفسها، وهي أن يقوم بتقديم صورة عن الكون على سبيل الافتراض الذي ينتظر الإثباتات، وعلى أساس ما قد يُكشف لنا من حقائق، ولذلك يعدّ بيريس من الفلاسفة المعاصرين الذين يتميّزون بقابليّة الصواب والخطأ، وذلك وفقًا لِمَا تقدمه المشاهدات من شواهد.14 ووفاقًا لمذهب بيريس بأنّ الفكرة هي خطّة للعمل وقيمتها في نجاح تلك الخُطّة، فهي كالخريطة التي قيمتها كلّها مرهونة، لا بجمال ألوانها وحُسن شكلها وإحكام رَسْمها، بل بكونها أداة صالحة في يد المسافر يعرف بها أين النهر وأين الجبل، إلّا أن ما أكثر الناس الذين يحسبون أنّ في رؤوسهم أفكارًا حتى إذا سألته ماذا تستطيع تلك الأفكار أن تؤدّي في دنيا العمل؟ لم يجد جوابًا لأنها ليست في الحقيقة أفكارًا بالمعنى الذي تحدده الفلسفة البراغماتية، فمذهب بيريس البراغماتيّ قاعدة منطقية لتحديد المعنى.15 ويجدر بنا في هذا الإطار التّفرقة بين مفهومَيْن مهمّين جدًا، هُما: مفهوم المعنى ومفهوم الصدق، فمتى يكون العبارة معنى عند بيريس تكون العبارة ذات معنى إذا ما كانت ألفاظها دلت على خبرة حسية يمكن الرجوع إليها في عالم التجربة، وليس لأيّة لفظة معنى سوى مجموعة الخبرات الحسية المتوقع حدوثها فمثلًا إذا قلت عن شيء أنه "صلب" كصفة، فما معنى الصلابة؟ معناها خبرات نخبرها حين نستخدم ذلك الشيء في حياتنا العملية ثم يخدش غيره ولا ينخدش ويكسر غيره ولا ينكسر بغيره وهلمّ جر، ونتيجةً لهذه الأفعال يكون معنى كلمة "صلب" في براغماتية بيريس هي براغماتية معنى في مقابل براغماتية وليم جيمس التي هي براغماتية صدق.16وليم جيمس ولد وليم جيمس عام 1842م وتوفي في عام 1910م وهو طبيب وله إنجازات في علم النفس، كان له اهتمامات في الجانب العلمي والجانب اللاهوتي، أما الجانب العلمي فقد كان يقربه من النزعة المادية، ومع ذلك فهذا لم يبعده عن مفاهيم ذات صلة باللاهوت والعاطفة الدينية وعلاقة الفلسفة بالدين.17 أما فيما يخص الفلسفة البراغماتية فقد أضاف وليم جيمس مفهومًا جديدًا، وهو مفهوم الحقيقة البراغماتية الذي قام بتطويره عن تشارلز بيريس، فبالنسبة لوليم جيمس هي مفهوم للحقيقة بالدرجة الأولى، وقد تابع وليم جيمس المبدأ الذي أعلنه بريس، وهو الذي أخذ بأننا لكي نصل إلى الوضوح في أفكارنا عن موضوع نحتاج فقط إلى النظر في الآثار أو النوع العملي التي يمكن لنا أن نتصورها متضمنة في الموضوع، ووظيفة الفلسفة هي أن تكتشف ما الفارق لنا إذا كانت هذه صيغة العالم أو غيرها صادقة، إن النتيجة العملية لهذا المفهوم هو أنّ النظريات تصبح أدوات، وهي ليست عبارة عن إجابات لأسئلة، ولذلك السبب سُمّيت البراغماتية في بعض الأحيان بالأداتيّة.18 إنّ الفكرةَ تكون صادقة بقدر ما نعتقد أنها مفيدة لحياتنا والحقيقة هي نوع من أنواع الخير وليست مقولة منفصلة، والصدق يطرأ لفكرة، فالأحداث هي التي تجعلها صادقة من الصواب أن نقول مع العقلانية أن فكرة صادقة يجب أن تتفق مع الواقع، لكنّها اتفاق ليس معناه نسخة، فالاتفاق مع الواقع -بأوسع معنى الاتفاق- يَعني فقط أن نتوجه إمّا مباشرةً إليه أو إلى ما يحيط به، أو أن نعمل عملًا بحيث نحتكّ به، كأن نمسك به أو نمسك بشيء متّصل به، وذلك أفضل في حال اختلفنا، ويضيف جيمس بأنّ الصادق هو فقط المناسب لطريقة تفكيرنا.19جون ديوي جون ديوي هو عالم وفيلسوف ولد عام 1859م كان له تأثير كبير في الولايات المتحدة الأمريكية من خلال فلسفة التاريخ وكان أستاذًا للفلسفة في شيكاغو، ودَرّسَ التربية الجمالية البراغماتية وفلسفة الفن والنظرية السياسية يعرف بتوجهاته الليبرالية كنظرية سياسية.20 إن الأهمية الكبرى والسّبب في شهرة ديوي هي مفهوم للحقيقة من وجهه نظر الفلسفة البراغماتية الأداتية، والإجابة عن سؤال: متى يكون الشيء صادقًا أو كاذبًا؟ يجيبنا ديوي بأنه ليست الكلمات هي التي تحدد لنا ما إذا كانت الجملة صادقة أو كاذبة، وتأكيدًا على المعنى نعود إلى فلسفة بريس البراغماتية القائمة على أساس المعنى من حيث الأداتيّة، وليس كما قامت فلسفة وليم جيمس على آثار الصدق والكذب، وحين تؤكد جملة فأنت تعبر عن اعتقاد يمكن أيضًا التعبير عنه من خلال لغات متعددة ومختلفة.21 يؤكّد ديوي أنّه لا يهدف إلى أن يقيم أحكامًا صدقُهُ صدقًا مطلقًا أن يَدين قائدها بأنها كاذبه كذبًا مطلقًا، حسب رأي جون ديوي أن عملية تسمى التحقيق هي شكل واحد من أشكال التكيف المتبادل بين الكائن العضو بيئته، ويؤكد وجندي على مفهوم التحقيق كجزء من العملية العامّة في محاولة لجعل العالم أكثر عضوية، والحقيقة عند ديوي تعرف في حدود مفهوم التحقيق، وليس العكس الاعتقاد هو ما يطلق عليه حكم الصدق أو الكذب.22 ما هي الفلسفة البراغماتية المحدثة؟ يؤكّد االمفكّر المصري زكي نجيب محمود في كتاب "نافذة على فلسفة العصر" على الفلسفة البراغماتية المحدثة كتيّار فلسفي معاصر، فإذا كانت الماديّة الجدليّة والماديّة التاريخيّة تستقي من فلسفة التاريخ بمعنى أنّها تصوب النظر إلى الماضي والحاضر، لتنتهيَ بنا بنظرة إلى المستقبل فقد قامَ ماركس وأنجلز بصياغة نظرية التطور الاجتماعي، فيمكن القول إنّ البراغماتية هي فلسفة المستقبل بمعنى أنه يمكن أن نقوم بقياس الأمور بما يترتّب عليه من نتائج عملية يمكن الحكم عليها، والمعنى الحقيقي لأيّ فكرة هي النتائج التي ستؤدي لها، وبهذا يمكن اعتبار الولايات المتحدة الأمريكية، والتي قامت بتزعم المعسكر الرأسمالي الغربي هي الأنموذج للفلسفة البراغماتيّة التي انتشرت فيها في القرن العشرين، وامتدت حتى القرن الواحد والعشرين.23 كما أنّ البراغماتية اتّصلت بشكل كبير بالمذهب الإجرائيّ، وذلك من خلال تطور التكنولوجيا والتطور العلمي الذي شهده القرن العشرين، والذي كان بمثابة ثورة معرفيّة علمية هائلة بينما ذهبت الإجرائية في فهم المعاني أو الأفكار.24 وذلك يعني أن الفكرة معناها هو مجموعة من الإجراءات التي نقوم بها، ونقوم بتحقيقها، وبهذا يتصل فِكر البراغماتي بعمليات التغيير حتى أنّه من الممكن اعتبار هما وجهان لعملة واحدة، وبذلك تكون التجربة على الواقع المحسوس هي أساس التفكير العلمي البراغماتية على الرّغم اختلافاتها مع المادية الجدلية في اتجاه النظر، إلّا أنّهما يشتركان في رفض التأمّلات التي لا تلد للناس عمل يؤدونه ولا تنسى لهم تغييرا وبهذا يمكن اعتبار الفلسفة البراغماتية فلسفة العصر، والتي قد تم استخلاصها من ميول العصر ومتطلباته؛ وذلك لمواكبة التحديثات الناشئة، والفلسفة العلمية تحتم علينا أن نتبنى النظر العلمية القائمة على التجربة والتطبيق، وهي نتيجة لهذه الفلسفات، وعلى رأسها البراغماتية المحدثة.25 ما هي نظريه الأخلاق البراغماتية؟ هل هناك نظرية أخلاق براغماتية؟ إذا كان الوصول إلى الحقيقة مستحيلًا، فحتمًا لا يوجد دليل على أنّ الحقائق ثابتة ولا تتغير، إنّما العكس هو الصحيح، بمعنى أن الحقائق تنمو وتتغير وفقا للوقائع التي تحدث حولها، ومن هذا المنطلق يرى البراغماتيون أن الأخلاق ليست مطلقة، بل هي نسبية وتتغير بتغير الزمان والمكان، ممّا يعني استحالة تأسيس القيم الثابتة أو المطلقة، وبالتالي نستنتج من هذا الأمر أنّ القيم تحددها المنفعة والمصلحة، وهذا أمر متغير، وليس ثابتًا مما يعني أن ما هو نافع اليوم قد يكون غير نافع غدًا.26 الأمر الثاني، وهو أنّ معرفة الأشياء لا تتم من خلال التأمل المحض والمجرد وإنّما من خلال التجربة العملية، بناءً على هذا القول لا يمكن لنا أن نؤمن أو نعتقد بالأخلاق الفطرية، إنما القيم والأخلاق المكتسبة ويتم الاتصال من خلال الخبرة والتجربة، وبهذا يهاجم البراغماتيون نظرية الأخلاق العقلانية، بمعنى أنّ الأخلاق ليست متأصلة في الذات الإنسانية التي عرفت وتميزت العقل عن سائر الكائنات الأخرى.27 تعدّ فلسفة الأخلاق فرعًا من فروع الفلسفة البراغماتية التي قام الفيلسوف جون ديوي بتطويرها، فإذا كانت العبرة لدى الفلاسفة البراغماتيين في مدى نجاح الفكرة في الحياة، وبهذا تكون الأخلاق وسيلة وليست غاية في ذاتها، بمعنى أنّها عبارة عن أداة لتحقيق المنفعة ولتحقيق أكبر قدر ممكن من السعادة والنجاح في الحياة العملية، بالتالي فإنّ الفعل الأخلاقي يكون بنتائجه، لا بمبادئه.28 علاقة الفلسفة البراغماتية بالفلسفات الأخرى هناك العديد من الاتجاهات الفلسفية التي تزامنت مع ظهور البراغماتية ولها صلة بها أهمها: الفلسفة الماركسية ظهرت الفلسفة الماركسية على يد كل من ماركس وأنجلز، كمعارضة للفلسفة الرأسمالية التي تبنت الفكر البراغماتي، فما هي الفلسفة الماركسية؟29كان الإسهام الكبير للماركسية هو صياغة النظرية الاشتراكية العلمية وإدخالها في حركة الطبقة العمالية، وقد وضعها كلٌّ من ماركس وإنجلز على أساس فَهم علميّ لقوانين التطور المجتمع والصراع الطبقيّ؛ وهكذا تمكّنا من إيضاح كيف يمكن تحقيق الاشتراكية من خلال تسليح الطبقة العاملة بالرسالة الماركسيّة، وينبغي التأكيد على أنّ ماركس لم يصل إلى استخلاص هذه النتائج كمجرد بحث، وإن كان قد أجرى أبحاثًا عميقة في أربعينيات القرن التاسع عشر.30 انغمس ماركس كجمهوري وديمقراطي وثوري في الحركة التي أدت عام 1848م إلى الثورة وقد توصل إلى استخلاص يسعى إلى فهم الحركة التي أسهم فيها؛ لكي يساعد في توجهيها إلى هدف وهو تحرير الشعب من القهر والخرافة والاستغلال، وصيغة هذه النتائج في بيان الحزب الشيوعي الذي كتبه ماكرس بالتعاون مع إنجلز عام 1848م، فقد رأى كلٌّ منهما أن الحركة الاجتماعية بأسرها الصراع بين الطبقات، وأن الطبقات المتنازعة، ليست إلا انعكاس للحركة الاقتصادية، فإذا كانت الثورة البرجوازية قد حصلت فلم تكون مَهمّتها سواء إزالة آثار الحكم الإقطاعي، وإقرار الديمقراطية وكانت تمهد الطريق لثورة أخرى وهي الثورة البروليتارية الاشتراكية. ينبغي التأكيد على أنّ هذه الثورة لم تكتمل إلا في حال حصلت الطبقة العاملة وهي البروليتاريا على السلطة،31 يقول أنجلز: إنّ كل التاريخ الماضي كان تاريخ صراعات طبقية، وأن هذه الطبقات المتحاربة هي دومًا نتاج الظروف التبادل والإنتاج باختصار نتائج الظروف الاقتصادية لعصرها، وبالتالي فإنّ التركيب الاقتصادي للمجتمع يشكل دائمًا الأساس الحقيقي الذي يفسر دائما في التحليل الأخير كل التركيب العلمي المؤسسات القانونية والسياسيّة، فضلًا عن المفاهيم الدينيّة والفلسفية وغيرها من المفاهيم في كلّ فترة تاريخية.32 وكان للماركسية موقف خاصّ من الأيديولوجيا فهل الأيديولوجيا أداة للاستلاب أم أنها أداة للتحرير؟ وما الفرق بين البراغماتية والأيديولوجيا؟ إنّ الإجابة عن هذا السؤال كانت الشغل الرّئيس للماركسية منذ أن وجدت، ولكن هل من الممكن الإجابة عن هذا السؤال قبل أن نسأل سؤالًا آخلا وهو هل للماركسية نفسها أيديولوجي؟ أم أنها نقد كل الأيديولوجيات يؤكد ماركس أن الماركسية ليست أيديولوجيا، وأنها على العكس نفي لكل الأيديولوجيات السابقة فالأيديولوجيا هي الأفكارالزائفة، والأيديولجيات السابقة مثل النفعية التي وطدت العلاقة بين البراغماتية والأيديولوجيا فيما بعد، والتي نشأت في ظلّ الرأسمالية، وهذا المعنى الذي أعطاه ماركس وأنجلز للأيدولوجيا في مؤلّفات الشباب، ولا سيما في الأيديولوجيا الألمانية.33لكن ما هو مشترك بين كلٍّ من الفلسفة البراغماتية والفلسفة الماركسية هو أنّ كلاهما حارب الأفكار الميتافيزيقية والأفكار التأملية المجردة34، فإذا كانت البراغماتية قامت بانتقاد الفلسفة المثالية فكذلك فعَلَ الماركسيّون ووجّهوا انتقادات كبيرة للفلسفات المثالية، وما فوق الطبيعة، حيث إنّهم يعتقدون أنّها في الأساس دينًا ولاهوت يقول لينين في الملاحظات الفلسفية عن المثالية هي الكهنوتية، وكل مثالية هي استمرار للمعالجة الدينية للمسائل.35 وإن كانت بعض النظريات المثالية تخلع رداءها الديني، فلا يمكن الفصل بين المثالية وبين الخرافة والإيمان بما فوق الطبيعة بقوة غامضة وغير معروفة، ومن ناحية أخرى تبحث المادية عن التفسيرات بعبارات تنتمي إلى العالم المادي، وفي عوامل يمكن التحقق منها وفهمها والسيطرة عليها، وهكذا فإن جذور الفهم المثالي للأشياء هي جذور الدين بالنسبة إلى المتدينين، لا تجد المفاهيم الدينية المفاهيم الكائنات الروحية في ما فوق الطبيعة تبريرًا، والواقع أنّ في هذه المفاهيم شيئًا يضرب بجذوره عميقًا في الطبيعة الروحية الإنسانية، والواقع أنه من الصحيح أن هذه المفاهيم جذورها عميقة في التطور التاريخي الوعي الإنساني.36 لقراءة المزيد عن الاتجاه الماركسيّ، ننصحك بقراءة هذا المقال: معلومات عن الفكر الماركسي. الفلسفة الوجودية إذا كانت الفلسفة البراغماتية تهتم بالفرد وتهتمّ بسعادته ومصلحته، وقامت بتقديم الفرد كفاعل حقيقي، فإن الفلسفة الوجودية أيضًا اهتمت بالفرد لكن الفرق بين البراغماتية الوجودية هو نزعة الحرية المتمركزة في الفلسفة الوجودية، يقول سارتر: إنّ الوجود سابق على الماهية بالنسبة إلى الإنسان، وليس الإنسان سوى أنه هو من يصنع نفسه بنفسه، وهذا أول مبدا من مبادئ الفلسفة الوجودية وهو ما يسمى بالذاتية، ولا يعني سارتر بهذه الكلمة إلا أن للإنسان كرامة أكبر ممّا لكل شيء سواه، وذلك أن الإنسان يوجد أساسًا ثم يكون وهو يكون شيئًا يمتد بذات نحو المستقبل، وهو يعني أنه يمتد بها إلى المستقبل، وهو مشروع يمتلك حياه ذاته بدلًا من أن يكون شيئا آخر.37 ومن غير الممكن أن يكون للإنسان مشروع وجود دون أن يكون ما يريد، وأن يقوم بعملية الاختيار، فكل فرد وصي على نفسه ومسؤول عمّا هو عليه مسؤولية تامة، وعندما يقول سارتر أن على الإنسان أن يختار لنفسه، لا يعني أبدًًا تجرده من المجتمع، بل يعني سارتر بذلك أن يختار الإنسان لنفسه وللناس جميعًا، فيأخذ بعين الاعتبار تأثير قراراته واختياراته عليه وعلى الإنسانية جمعاء. لقراءة المزيد عن الفلسفة الوجودية، ننصحك بقراءة هذا المقال: تعريف الفلسفة الوجودية. موقف الإسلام من البراغماتية ما هي نظرة الإسلام إلى الفلسفة البراغماتية؟ للعمل قيمة كبيرة في الفلسفة البراغماتية، وتسمى الفلسفة البراغماتية بالفلسفة العملية أو فلسفة العمل؛ لحرصها على أن يقوم الإنسان بأعماله الموكولة إليه ويسعى في سبيل تحقيقها؛ كي يكون سعيدًا، بدلًا من إضاعة الوقت في أمور أخرى، وكذلك كان للعمل أهمية كبيرة في الإسلام ومن أبرز الأمثلة على ذلك، أنّ القرآن الكريم رَفَع من قيمة العمل ومجّده، وتكررت كلمة "العمل" ومشتقاتها في القرآن الكريم كثيرًا، وكم تكررت كلمه السعي والكسب ككلمات تقترب من مفهوم العمل.38 وإذا كانت الفلسفة البراغماتية قائمة على التجربة وعلى الخبرة فلا تقبل بالنتائج إلّا بعد التحقّق منها عن طريق التّجربة والخِبرة، واعتمدت البراغماتية اعتمادًا كليًا على المنهج التجريبيّ، لكن التجربة والمشاهدة ليستا وسيلتَيْ العلم القطعيّ من وجهة نظر الدين الإسلاميّ، والمنهج التجريبي عاجز عن تفسير الأمور الغيبية، مثل: الروح أو الموت أو ما بعد الموت، فلا يستطيع تفسيرها، ولا يمكن تطبيق المنهج التجريبي على العلوم الإنسانية سواء النفسيّة أم الروحيّة أم التاريخيّة.39 مآخذ على الفلسفة البراغماتية ما هي أهم الانتقادات التي تم توجيهها إلى الفلسفة البراغماتية؟ صعوبة تحديد النتائج بناءً على مبدأ الفيلسوف البراغماتي بيريس والذي يقول بأن الحكم على الأفكار وكافة المعتقدات والأقوال والمعاني لا يكون إلا من خلال نتائجها، فإن هنالك صعوبة كبيرة في تحديد هذه الأمور، والبراغماتية في صميمها ليست سوى منهجية لاكتشاف الأخطاء والأفكار الخاطئة، وهذه الأفكار التي ليست لها آثار عملية، بما معناه أنها بحث سلبي عن الحقيقة، وليست بحثًا إيجابيًا.40 طريقة تحديد النتائج ليست براغماتية بالنّظر إلى فلسفة وليم جيمس التي تقوم على مبدأ أنّ كل ما هو نافع صحيح، وكل ما هو صحيح نافع فإنّ طريقة تحديد النتائج لا تتمّ بطريقة براغماتية، ويترتب على هذا الأمر أن الفلسفة تصبح مجرد جري وراء تحقيق النفع العمليّ، وأصبح البحث عن الحقيقة أمرًا ثانويًا قياسًا بالبحث عن النفع العملي، وعندها تقوم البراغماتية بالربط بين الحقّ والصحيح والحقيقة بالنفع.41 اعتبار الحقيقة وسيلة وليست غاية إنّ النتيجة النهائية للبراغماتية هي أن تصبح الحقيقة وسيلة وليست غاية في ذاتها، ولا تكون الحقيقة ممكنة، في حين أنّ البحث عن الحقيقة هو غاية في ذاته، مما سيؤدي إلى تضييق الفكر البشري، وسيتم تقديم الأهواء والشهوات على القيم والأخلاق.42  
  
وليم جيمس، البراجماتية، صفحة 65. بتصرّف.

وليم جيمس، البراجماتية، صفحة 66. بتصرّف.

رنا الشويعر وسهام العصيمي، الفلسفة البراغماتية، صفحة 6.

وليم جيمس، البراجماتية، صفحة 239.

وليم جيمس، البراجماتية، صفحة 240.

خالد الدباس ، تطور الفكر السياسي لدى تيار الإسلام السياسي في العالم العربي:، صفحة 67.

خالد الدباس، تطور الفكر السياسي لدى تيار الإسلام السياسي في العالم العربي، صفحة 67.

أ ب ت خالد الدباس، تطور الفكر السياسي لدى تيار الإسلام السياسي في العالم العربي، صفحة 67.

خالد الدباس، تطور الفكر السياسي لدى تيار الإسلام السياسي في العالم العربي، صفحة 67

زكي نجيب محمود (2017)، نافذة على فلسفة العصر، صفحة 126.

زكي نجيب محمود (2017)، نافذة على فلسفة العصر، صفحة 128.

زكي نجيب محمود (2017)، نافذة على فلسفة العصر، صفحة 128.

زكي نجيب محمود (2017)، نافذة على فلسفة العصر، صفحة 129.

زكي نجيب محمود (2017)، نافذة على فلسفة العصر، صفحة 129.

زكي نجيب محمود (2017)، نافذة على فلسفة العصر، صفحة 132.

زكي نجيب محمود (2017)، نافذة على فلسفة العصر، صفحة 133.

برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية الجزء الثالث، صفحة 464.

برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية الجزء الثالث، صفحة 472.

برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية الجزء الثالث، صفحة 472.

برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية الجزء الثالث، صفحة 476.

برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية الجزء الثالث، صفحة 479.

برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية الجزء الثالث، صفحة 481.

زكي نجيب محمود (2017)، نافذة على فلسفة العصر، صفحة 181.

زكي نجيب محمود (2017)، نافذة على فلسفة العصر، صفحة 182.

زكي نجيب محمود (2017)، نافذة على فلسفة العصر، صفحة 183.

سوسن زياد، الأخلاق البراغماتية جون ديوي والآداتية، صفحة 23.

سوسن زياد، الأخلاق البراغماتية جون ديوي والآداتية، صفحة 23.

سوسون زياد، الأخلاق البراغماتية جون ديوي الأداتية، صفحة 24.

زكي نجيب محمود (2018)، نظرية المعرفة، صفحة 28.

أ ب موريس كورنفوؤث، مدخل إلى المادية الجدلية، صفحة 201.

موريس كونفورث، مخل إلى المادية الجدلية، صفحة 202.

موريس كورنفورث، مدخل إلى المادية الجدلية، صفحة 202-203.

جورج طرابيشي، الماركسية والأيديولوجيا، بيروت لبنان:الطليعة، صفحة 9-10.

زكي نجيب محمود، نافذة على فلسفة العصر، 2017:وزارة الثقافة الأردنية ، صفحة 183.

موريس كورنفوررث، مدخل إلى المادية الجدلية، صفحة 34.

موريس كورنفورث، مدخل إلى المادية الجدلية، صفحة 34-35.

أ ب سارتر (1964)، الوجودية مذهب إنساني، مصر:مطبعة الدار المصرية، صفحة 14-15-16.

زكريا الرطروط، الفلسفة البراغماتية وموقف الإسلام منها، صفحة 193-194.

زكريا الرطروط، الفلسفة البراغماتية وموقف الإسلام منها، صفحة 202-202.

زكريا الرطروط، الفلسفة البراغماتية وموقف الإسلام منها، صفحة 170.

أ ب زكريا الرطروط، الفلسفة البراغماتية و موقف الإسلام منها، صفحة 170-171.